كابتن فيليبس

ترجمة

مروان منير

سما
للنشر والتوزيع

كابنت فيليبس

مروان منير

الطبعة الأولى: يناير
1440 هـ - 2019م

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

دار الكتب المصرية

كابنت فيليبس

القاهرة: سما للنشر والتوزيع، 2019

224 ص؛ 13,7×19,5سم - كابنت فيليبس

تدمك - 978-977-781

أ. العنوان

رقم الإيداع: /2018

تدمك - 978-977-781

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
لدار «سما» للنشر
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

دار سما للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية
15 ش يوسف الجندي متفرع من شارع البستان - باب اللوق - القاهرة
تليفون: 24517300 202+ - 01271919100 2+
email: samanasher@yahoo.com
Web-site: publishing@sama-publishing.com

التوزيع

المجموعة الدولية للنشر والتوزيع

80 ش طومان باي - الزيتون - القاهرة - جمهورية مصر العربية
تلفاكس: 24518068 202+ - 01099998240 2+
email:aldawleah_group1@yahoo.com

التنفيذ الفني

دَرَجْ
للاستشارات وخدمات النشر
ali@daraj-eg.com

كابنت فيليبس

مروان منير

شكر وتقدير

Acknowledge ments

أود أن أتقدم بالشكر إلى القوات البحرية الأمريكية ووحدات قطع البحرية.

بدون دعمهم، لم يكن من الممكـــن لهذه القصة أن ترى النور، أو ربما كنا سمعناها من شخصٍ آخر مع نهايةٍ مختلفة.

إلى طاقم المركـــب، ولقدرتهم على التماســـك والتفكير بحكمة، وأدائهم لعملهم بامتيازٍ كأي طاقم بحرية أمريكية تجارية.

إلى الشـــركات التي عملنا بها: أل أم أس (L M S) إدارة الشـــحن المتنقل، ألباما، ماريسك لاين، ليمتد في نوروفولك – فيرجينيا... لكل الدعم والمساعدة التي أعطوها للطاقم وعائلاتهم خلال وبعد الحادثة.

إلى عائلتي، أصدقائي، جيراني، الذين تواجدوا لدعمنا...

بيج وايميت – سوزان ومايكل – ليما – أليسون – أمبر.. فقط أذكر البعض.

وأخيرًا، إلى الكثيرين الذين أرسلوا الدعم لنا وأقاموا الصلوات خلال وبعد الحادثة.. والتي تعني لي و(أندريا) الكثير.

الفصل الأول

قبل 10 أيام

قدرت حجم أعمال القرصنة بحوالـــي 20 بالمائة في الربع الأول من عام 2009، مجموع 36 سفينة أبحرت ووصلت بسلامٍ وواحدة تم اختطافها.

ســـبعة من طاقم المركب تم أخذهم كرهائن، و6 تم اختطافهم و3 قتلوا، وواحد مفقود – يعتقد أنه مات.

في الغالبية العظمـــى من الحوادث، كان المهاجمون مســـلحين بأسلحةٍ ثقيلة ومسدسات وأسلحة بيضاء..

الاستخدام والتهديد بالعنف تجاه أعضاء الطاقم ما زال غير مقبول بشكلٍ نهائي.

فالمياه والشـــواطئ حول منطقة الصومال ما زالت تحمل سمعة سيئة في اختطاف المراكب وحجز طاقم العمل طلبًا للفدية.

كان هذا تقريرًا من مكتب مكافحة القرصنة الدولية.

الربع الأول من عام 2009

قبل عشـــرة أيام، كنت أقضي وقتًا ممتعًا في تناول آخر وجبةٍ في الولايات المتحدة الأمريكية مع زوجتي (أندريا).. في واحدةٍ من أجمل المدن في ولاية (فيرمونت).. كل مـــا تراه عيناك خارج الباب الأمامي للمنزل الريفي الذي تحول إلى منـــزلٍ حديث.. لفائف من المرتفعات الخضراء، أبقار تمضغ طعامها.

والكثير من المرتفعـــات الخضراء أيضًا.. وفي نهاية المنحدر تجد مدينـــة (فيرمونت) والتي عادةً ما يقوم المزارعون الشـــباب بالكتابة بالبخاخ على المنازل، عارضين الزواج على فتياتهم مثل: (راشيل، هل تقبلين الزواج مني؟).

إنه المكان الذي إذا سرت فيه على قدميك لثلاث دقائق، ربما تضل طريقك في الغابة للغاية ومن كثرة الهدوء والتفكير فإنك تظن أنك في رحلةٍ إلى (دانيال بون).. لدينا في البلدة متجران أساســـيان وكنيسة (سانت توماس) الكاثوليكية.. وأحيانًا يأتي بعض السائحين من مدينة مانهاتهن في نيويورك.. إنها بلدة تختلـــف عن المدن التي تقع على المحيط.. حيث أن القمر في الجانب الآخـــر، وكم أحب ذلك! وكأنني أستطيع أن أحيا حياةً مختلفة.

وأنا كبحارٍ تجاري، أعمل لثلاثة شهور ثم أحصل على ثلاثة شهور إجازة، وعند عودتي لمنزلي، أتناســـى تمامًا أي شيءٍ متعلق بالبحر، فأنا مائة بالمائة أب وزوج، عندما كان أطفالي (دان، وماريا) صغارًا.. كنت أعتني بهما منذ لحظة اســـتيقاظهما حتى خلودهما للنوم، وكان

بعض الجيران والأصدقاء يتركون أطفالهم عندي لأرعاهم، فنصبح في البيت وبه خمسة أو أكثر من الأولاد، أقوم بإعداد وجبة العشاء، والخبز الفرنسي المحلي مع ضوء الشـــموع، وكان أفضل ما أقوم به، هو أن أصحب الأطفال في نزهةٍ تعليمية.

فأنا معتاد إذا قمت بعمل أي شـــيءٍ، سواء في البيت أو العمل.. أن أقوم به على أكمل وجه، وعندما أترك أسرتي.. عادةً يكون لفترةٍ طويلة، فدائمًا ما أرغب أن أقوم بعملٍ مميز لصالحهم قبل إبحاري.. حيث أنه ربما تكون المرة الأخيرة التـــي أراهم فيها عندما كان ابني (دان) في مرحلة نموه.. كان يســـتفزني قائلًا: "آه أنا ليس لدي أب، دائم التغيب عن المنزل، أعتقد أنه لا يحبني."

وكنا نضحك على مقولته تلك.. (دان) يشبهني تمامًا، عندما كنت في الثالثة عشـــرة من العمر، كنت متحذلقًا، حيث أبحث عن نقطة ضعفك وأضرب عليها بشدة حتى تستســـلم وأضحك، لكن ما قاله عن تغيبي الدائم عن المنزل قد مســـني من الداخل، حيث أن هناك حقيقة ثابتة هنا، هما أي (دان وماريا) اعتادا أن يرياني كل يومٍ في ثلاثة شـــهورٍ متصلة، وبعدها أذهب إلى المجاهل البعيدة في ركنٍ ما من العالم، لم يفطنا أن هناك بحارة تجاريين يمكثون في أسفارهم فترة أطول بكثير من الفترة التي أقضيها أنا.

كنت أعرف أحدهم وهو يعمل ضابطًا لاســـلكيًّا على إحدى السفن، والذي مكث في إحدى رحلاته لمدة عامٍ متواصل بلا راحة أو إجازة أو عودة.

فأنـــت كبحارٍ، عليك أن تضع حياتك الحقيقية على أحد الأرفف في حجرة الطعام واستبدالها بحياة البحار التجاري.. حيث أنك أثناء العمل نادرًا ما يكون لك حيـــاة خاصة.. فأنت جاهز للعمل في أي وقتٍ على مدار الساعة.. لتعمل ما تحتاجه السفينة، كل ما تفعله أنك تأكل وتنام وتعمل.. وكأنك قدمت وذهبت إلى البحر ثم تعود إلى البيت لتســـتعيد حياتك من فوق الرف مرة أخرى وتبدأ ثانية من جديد.

فأنت تبتكر طقوسًا تستطيع بها التنقل بين حياة البر وحياة البحر.

وهناك مقولة يستخدمها البحارة تقول: "عبر الحواجز" والتي تعني أنك تترك الميناء إلى المجهول في المحيط (وربما أيضًا تعود إلى موت البحارة) وعليك أن تقوم بالاســـتعداد الذهني للانتقال، إنه وقت مليء بالضغط العصبي.. عندما يبدأ الخوف في التســـلل إلى عقل أحبائك، وهذا هو الجـــزء الأخطر في عملي هذا ما يدور فـــي عقل (أندريا).. صقيع شـــهر مارس، القراصنة، الأمواج القاتلـــة، أناس بهم عوز في موانيء دول العالم الثالث، ومـــع كل هذا مطلوب في التفكير ككابتن ومراجعة آلاف الأشـــياء المدونة في قائمة العمل.. ما هي الإصلاحات التي يجب أن أتابعها؟

هل طاقم العمل معي يتحمل المسؤولية؟ أنا اعتدت أن أقوم بعمل ذلك شهرًا قبل أن أغادر، وهذا ما كان يثير جنون (أندريا).

والآن وبعـــد ثلاثين عامًا في البحر، دائمًا أعود أدراجي إلى رصيف الميناء.. إلى الســـفينة، تعودنا أنا و(أندريا) على عادةٍ اعتدناها عند استعدادي للمغادرة..

أولًا: لا ندخل في خلافٍ أو جدالٍ على الإطلاق، على أي شيءٍ مهما كان، وفي الأسبوع الذي يسبق مغادرتي.. كنت أنا و(أندريا) نتشاجر دائمًا على أشـــياءٍ صغيرة، على السيارة أو الطقس أو اصطدام رأسها بجرس ســـفينة قديم معلق بجوار حبل الملابس في الحديقة الخلفية للمنزل، ربما اصطدمت به ثلاث أو أربع مرات عندما كانت تقوم بتعليق الملابس المبتلة على الحبل لتجف.

ثم تصرخ سائلة أن أخلعه من مكانه... (له قيمة مادية كبيرة) ولكن في هذه الأســـابيع قبل عملي، كنا لا نطيق بعضنا البعض ويعود هذا لأنها تشـــعر بعدم الارتياح لقرب موعد مغادرتي، وأنا أيضًا لدي نفس الشعور لمغادرتها.

(أندريـــا) تعمـــل ممرضة في غرفـــة الطوارئ في مستشـــفى (بيرلنجتون) فهي عنيفة وعنيدة، فتاة تعيش في فيرمونت، من أصلٍ إيطالي.. وأنا أحبها للغاية، وقـــد تقابلنا للمرة الأولى في (بار) يدعى (بوســـطون دايف) بالقرب من ميدان (كينمـــور).. عندما كانت في مدرســـة التمريض، وأنا كنت أجوب العالم لعدة مراتٍ كبحارٍ صغير، لاحظت وجود تلك الفتاة ذات الشعر الأحمر المجعد الجميل تجلس على شـــاطئ البحر.. وكان عليَّ أن أحدثها وأتعرف عليها، كانت (أندريا) تتبادل الحديث مع نادل البار.

وفجأة لاحظا وجودي بجوارهما.. رجل طويل القامة ذو لحية، ظهر أمامهما من حيث لا يدري أحد وجلس بجوارها.

- هل لديك مشكلة؟

تساءلتُ.

فكرت (أندريا) قليلًا.. يبدو وسيمًا.. لا مانع من مبادلته الحديث.

– ما هذا؟

قالت.

– أنت تظهرين كأجمل فتاة في كل ركنٍ وحجرة في البار.

– شكرًا.. هذه مجاملة مبالغ فيها.. يوجد هنا ثلاث فتيات أخريات.

ضحكت على كلامها.. ومددت يدي بالمصافحة لأقدم نفسي إليها:

أنا ريتش.

نفس اسم الشخصية في مسلسل (أشـــعث) حيث كان واحدًا من المسلسلات التي أحببتها في بداية الثمانينات.

انطلقت (أندريا) في الضحك المتواصل.. وبعدها ســـمحت لي أن أدعوها لنشرب سويًّا.

بعد هذا بسنوات وبعد أن تزوجنا.. صرحت لي (أندريا) أنها كانت تراني وقتها خفيف الدم ومريح في الحديث.. مثل غالبية الناس هنا.

كانـــت كل معرفتها ومعلوماتها عن العمـــل البحري التجاري، قد اكتسبتها من أفلام (هامفري بوجارت).. لهذا أعتقد كانت تحب سماع الكثير من القصص والأحداث التي أمر بها.

أنت تقص عليَّ هذه الأحداث بطريقةٍ مثيرة للاهتمام.

هكـــذا قالت (أندريا) بعد مقابلتنا الأولـــى.. كان عليَّ أن أعود إلى عملي وأبحر بعيدًا.

ولم تسمع (أندريا) أي شيءٍ عني لمدة شهور.. وقد انتقلت للعيش في شقةٍ جديدة بعد السنة الأولى في مدرسة التمريض.

وفي إحدى الليالي.. في تمام الواحدة بعد منتصف الليل، كان هناك صوت موسيقى (الراب) خارج باب شقتها، وعندما فتحت الباب، كنت واقفًا مبتســـمًا كما لو كنت ربحت (الياناصيب).. جلست على الأرض من هول المفاجأة، فقد تخيلت وظنت أنني بحثت وفتشـــت عنها في جميع أرجاء (بوسطون).. محاولًا الوصول لعنوانها الجديد، لكنها لم تكن بعيدة.

بلغت (أندريا) في ذلك الوقت الخامســـة والعشـــرين من العمر، وكانت تضع كل تركيزها في المدرســـة حيث صارت مهنة التمريض كل حياتها.

كنت أحتل بعض المكانة لديها، لكن في الركن البعيد من الشاشـــة في عقلها.. كنت أذهب إلى رحلاتي البحرية وكانت هي تتلقى بطاقات من تلك المدن وخطابات مـــن موانئ مختلفة في جميع أنحاء العالم.. وبعدها أعود إلى (بوســـطون) وأصطحبها للعشاء وبعدها لمشاهدة فيلمٍ في الســـينما.. ثم أقوم بتوصيلها هي وأصدقائها في الســـابعة صباحًا إلى المدرسة كي يتمكنوا من اللحاق بالفترة الأولى.

وبيـــن كل هذا، كنت أقص عليها الكثير ممـــا مررت به من بعض العواصـــف الجوية في كيب هاتيـــراس أوز (تيفونس) وكذلك بعض زملاء السفينة الطيبين والمجانين منهم.

بالنسبة لي كانت هذه هي حياتي الطبيعية في البحار، أما بالنسبة لها فكانت تعشق تلقي البطاقات وأن تراني فجأة دون ترتيب...

وكانت دائمًا تقول عند تذكرها لتلك الأيام: "كانت أيام رومانسية".. "بالفعل كانت رومانسية للغاية."

الليلة التي ســـبقت مغادرتي إلى سفينة (ماريسك ألاباما).. قفزت أنا و(أندريا) داخل الســـيارة واتجهنا صوب المطعم المفضل لدينا، مطعم اسمه (يورو).. بالقرب من مدينة (ايسكس) وقد طلبت (أندريا) طعامها.. عبارة عن (جمبري كبير) أما أنا فطلبت تشـــكيلة من فواكه البحر، وقد احتســـينا سويًّا زجاجة من النبيذ الأحمر والتي أحضرناها معنا.. حيث توفر لنا النقود بهذه الطريقة.

فأنا أصولي ترجع إلى (ثلاثة أرباع مني من أصل أيرلندي) والربع الأخيـــر (يانكي) وهذا الربع الأخير من شـــخصين هو من يتحكم في إنفاق الأموال، فقد كان معروفًا عني الحرص أو البخل بعض الشـــيء عندما يتعلق الأمر بالمال، ولم يكن هذا الأمر يزعجني.

في اليوم التالـــي الموافق 28 مارس، قامت (أندريا) بتوصيلي إلى المطار كعادتها، لم يكن هناك ثمة شـــيء مخالف للمعتاد في الفترة الأخيرة، قلت لها: "كل شيءٍ سوف يكون على ما يرام" وأضفت: "لدي

إحســـاس مؤكد أنه ستهب رياح ثلجية لمجرد مغادرتي، وكل ما عليك فعلًا هو أن تتخيليني مستلقيًا على ظهر السفينة مستمتعًا بالشمس الدافئة" أنا أحب الثلوج وليس هناك شـــيءٌ محبب إلى نفسي أكثر من النظر خلال زجاج النافذة الخلفية لمشاهدة الحقول والأشجار مغطاة باللون الأبيض.. ضحكت (أندريا) قائلـــة: "أراك في يونيو" وطبعت قبلـــة على وجهي.. هي عادةً تنتظر في المطار حتى مغادرة طائرتي، وقد بدأت التعود على هذه العادة منذ أن كانا (دان) و(ماريا) صغارًا.. فكانا يقفان خلف الزجاج ينظران إلى الطائرة وهي تقلع وهما يلوحان إلى أبيهما.. كم أحب تماســـكنا سويًّا وتجمعنا في كل شيء.. كم يفي هذا لي الكثير.

ولكن الآن فالأولاد في الجامعة و(أندريا) إلى طريقها للعمل، لذا لا تستطيع الانتظار، وكانت هذه هي المرة الأولى التي نغير فيها عاداتنا، وكم فكرت في ذلك فيما بعد.

كم أحـــب البحر وأحب عملي كبحارٍ تجاري، ولكن أحيانًا ما نقابل أمورًا غير مألوفة على السفينة، وأعتقد أن الكثير منها له علاقة بالبعد عمن تحبهم لفتراتٍ طويلة، فيدخل إلى رأسك ما يتلاعب بها، وكثير من الزيجات تفشل والبنات ربما تجد رجلًا آخر، فيتلقى أحد البحارة بريدًا إلكترونيًّا، يفيد أن فتاته لن تستمر معه..

في منتصف الليل وعلى أميالٍ ممتـــدة من المياه أمامه بلا حدود، فيقوم أحد الأفراد بالاختفاء، يقفز من فوق السفينة في عرض المحيط

ولا يظهر ثانية، ويرجع كل هذا إلـــى الإحباط والاكتئاب الذي يصيب الفرد منا بسبب بعده عن أحبائه.

يتحدث البحارة التجاريون عن (جودي).. شخصية اخترعوها وتثير في نفوسهم الرعب، فهذا الـــ (جودي) تتخيله قابعًا في المنزل مكانك، يضاجع امرأتك بينما أنت تعمل على ظهر السفينة، يأكل من طعامك، يقود سيارتك، ويحتسي زجاجات البيرة (جودي) يجلس على الأريكة حيث عودتك للمنزل، فينظر إليك متسائلًا: "من أنت؟"... فكنا نتبادل الدعابة، فإذا قام أحد أفراد السفينة بإجراء اتصالٍ هاتفيٍّ بزوجته ولم ترد على المكالمة، كنا نقول له مازحين: "إنها الآن مع جودي."

وللأسف أحيانًا (جودي) يكون حقيقة، فعند عودة أحدهم للمنزل بعد انتهاء رحلة، يجد بيته خاليًا من الأثاث وحسابه البنكي قارب على الصفر وخطيبته غادرته دون أن تترك له خطابًا أو كلمة مكتوبة.

يحدث هذه لبعض البحارة وبشكلٍ متكرر، كل مرة أسمع عن لفظ (جودي) هذا، أحمد الله على وجود (أندريا) في بيتي.. (جودي) لم يأتِ إلينا على الإطلاق.

فلن أكذب، ســـأقص عليكم ما يجري من غرائب للعاملين في هذا المجال، بعض البحارة نلاحظ لهم تصرفـــات غريبة خاصةً الطهاة، أعتقد أن هناك منهم أســـوياء، فكل فردٍ فيهم كان به بعض الجنون ما عدا زوج أختي (ديف) فكلنا نمر بتلـــك اللحظات من الجنون أحيانًا، ففـــي إحدى المرات كنت على مركب والقبطان الذي هو رئيســـي في العمل وقتها حيث كانوا يدعونه (بورت).. كان عنيدًا ورأســـه متحجرة

للغاية.. فكان يرفض اســـتخدام أجهزة الرادار حيث يؤمن أنها سوف تصيبك بالنعاس من طول النظر إليها، إلى أن تصطدم بسفينةٍ أخرى، فهو يظن أن الرادار من عمل الشـــيطان، وآخر كان له نصف شـــارب طوال الرحلة التي استغرقت ثلاثة شهور، وثالث كان يطالبنا أن نلقبه وننناديه (الدب القطبي) إذا أبحرنا تجاه القطب الشـــمالي، والعكس.. فتناديه (البطريق) عندما نبحر تجاه القطب الجنوبي، وهذا الرجل كان يشتري قميصًا (تي شيرت) من كل ميناءٍ نتوقف به، لدرجة أنه كان لا يستطيع أن يغلق باب حجرته من كثرة تلك الملابس، وفي إحدى المرات قابلت بحارًا وقد ظهر أمامنا مرتديًا جلد ثعلب والرأس للثعلب كانت لا تزال متصلة بالجلد الذي يرتديه على ظهره، فالبحارة يخسرون جزءًا من عقلهم، وهذا أكيد.

فدائمًا وأبدًا كان هذا هو الحـــال، فالبحارة التجاريون هم الأصل، هم أول من عـــرف التعامل مع البحر حيث وجدنا منذ عام 1775 قبل تكوين الجيوش أو القوات البحرية.

وفي كل الحروب التي خضناها ومنها الحرب العالمية الثانية، فمن كان لا يستطيع تحمل حياة القوات البحرية وقوانينها الصارمة، ينتهي به الحال على إحدى سفن البضائع حيث كان من الصعب عليهم فهم، لمَ كل هذه الصرامة.. أو تقديم التحية العســـكرية لكل من يقابله على السفينة.. فلم تكن هذه القواعد تتماشى معهم.

ولم تكـــن مصادفة أن الكثير من الكتـــاب والمؤلفين أمثال (جاك كيروك) و(ألين جينسبرج) كانوا في الأصل بحارة.

الحاجة إلى التعجب والتمرد، تسير جنبًا إلى جنب، فنحن مجموعة من المرتدين الغير أسوياء ولكننا من أفضل البحارة.

عندما أبحر من ميناءٍ إلى آخر.. فالكتب التي تتحدث عن البحارة التجاريين أو الحرب العالمية الثانية، عادةً ما تتواجد في أكوامٍ على طاولتي.

فنحن (البحارة) أو من لقي حتفه في الحرب العالمية الثانية، 17 دقيقة قبل الهجوم على (بيرل هاربور).. قام اليابانيون بتمشيط المنطقة مستخدمين سفينة شحن أخشابٍ تدعى (سينثيا أولسون) وأغرقوها بعد ذلك على مسافة ألف ميل شمال (هونولولو).. وقد قفز 33 بحارًا إلى قوارب الإنقاذ قبل غرق المركب.. ولكننا لم نر هؤلاء البحارة مرة أخرى، حيث اشتعلت نيران الحرب وأشعلت المنطقة بالكامل على بعد آلاف الأميال، وقد كان للبحارة التجاريين عدد ضخم من الضحايا أكثر من أي قطاعٍ آخر في الحرب العالمية الثانية.

أثناء هذه الخدمة، مات شخص من بين كل 26 بحارًا، فقد تم نسف طاقم السفن على طول ساحل الأطلنطي، وهم غرقى في زيوت المحركات، بينما على الجانب الآخر من الأطلنطي كان هناك من يستمتع بالاسترخاء في رمال الشاطئ ويستمتع بالحصول على حمام شمس، الرجال تجمدوا في شمال الأطلنطي حيث كانت أقدامهم من كثرة الصقيع ملتصقة بقاع مراكب الإنقاذ بعد غرق سفنهم، وتم نسف أيضًا سفن بطول 500 قدم للسفينة، تحمل على ظهرها ذخائر ومتفجرات لنقلها إلى الجنود في الصفوف الأولى، وأحدثت انفجارًا

هائلًا عنيفًا للغاية مما أخفى أي معالم من تلك السفينة ولم يخلف وراءه إلا بعض الحطام والمئات من البحارة على تلك السفن قد اختفوا وتلاشوا مع الهواء.. وكان من قام بمواقف بطولية حقًّا، هم رجال البحرية التجارية، منهم الجنود المجهولون، فقد استطاع هؤلاء الرجال الإبحار بسفن الذخائر إلى ميناء (نورماندي) بسلام، والتي انطلقت منها الهجمات إلى (أوكيناوا) باليابان.

لكن لا أحد يتذكر ذلك، وكان ما قاله اللواء (دوجلاس ملك أرثر) حقيقة (لقد أحضروا إلينا دماء الحياة، ودفعوا دماءهم بدلًا منها).

وعند هؤلاء الرجال، رجال البضائع، البحارة التجاريون، إلى بلادهم ومنازلهم لم يقام لهم أي احتفالٍ أو تكريم، ولا يزالون في محاولةٍ لإثبات ما فعلوه واعتراف المجتمع ببطولاتهم، كي يستطيعوا مواصلة حياتهم برأسٍ مرفوعة.

هناك (معاش) يدفع للمحاربين القدامى وقد أقره مجلس النواب، حيث يعاملون كضحايا حرب ويحصلون على إعانةٍ مالية أو (معاش).

حاول هؤلاء البحارة التجاريون أن يدخلوا ضمن من يستحقون ذلك (المعاش) نظرًا لما قدموه أثناء الحرب، لكن نظرًا للإجراءات والأمور السياسية، ما زالوا يكافحون حتى اليوم للحصول على هذا الحق، وربما يموت أحدهم دون أن يحصل على شيء، ودون أن يرى اليوم الذي سوف يتم الموافقة به على هذا القانون.. يا للعار!

عندما بدأت حياتي العلمية في البحـــار، التقيت برجلٍ خدم أثناء الحرب العالمية الثانية، حيث أصيبت ســـفينته بقذيفةٍ من الأســـفل، وأتذكر جيدًا ماذا قال لي: (كنت في البحرية التجارية – عندما اندلعت الحرب وشاهدت ســـفننا تتحرك في كل اتجاه، شعرت بخوفٍ شديد، والتحقت بالقوات البحرية) فكان هذا الرجل يمثل لي الاستثناء، حيث غالبًا ما يحدث العكس، وهو الانتقال من القوات البحرية إلى البحرية التجارية.

كلنا لدينا أعباء محملة على أكتافنا، نقاتل.. ولدينا تقاليد نفخر بها، نحن مجرد أفراد.. لا نصنع القوانين.

في رحلتي هذه إلى (ماريسك ألاباما).. اصطحبت معي في حقيبتي الصغيرة أحد هؤلاء الكتب التاريخية.. جلست في الطائرة.. أفكر فيما عليَّ فعله عند صعودي إلى متن السفينة.

طائرتي غادرت فـــي الثالثة بعد الظهر، حيث كنت أتجه إلى ميناء (صلالة) في (عمان) في الساحل الشرقي لبحر العرب، حيث كان يتم تحميل حمولة الســـفينة هناك، وقد استقرت رحلة الطيران 42 ساعة لأصل إلى السفينة.

وكان كل شـــيءٍ في هذه الرحلة حتى الوصول إلى السفينة يبدو عاديًّا.. من (بيرلنجتون) إلى (واشـــنطن دي ســـي) ثم إلى (زيورخ) ومن (زيورخ) إلى (مسقط) في (ســـلطنة عمان) ثم أقمت في فندق لمدة عشر ساعات، وفي صباح اليوم التالي، ذهبت مباشرة إلى مطار (مسقط) للذهاب بالطائرة إلى مدينة (صلالة) حيث الميناء.

تركـــت (فيرمونت) في يوم 28 مارس لأصل إلى وجهتي (صلالة) يـــوم 30 مارس، وكان دائمًا هناك من يتواجـــد معي عندما أتجه إلى الســـفر على إحدى السفن التجارية هو (شـــين) مساعدي وصديقي والذي كان ذاهبًا للعمل على (ماريسك الاباما) أيضًا.

في يوم 30 مارس.. غادرت ســـريري، وعقلي مشوش بسبب فرق التوقيت، قفزت إلى الســـيارة التي انطلقت بي إلى ســـفينتي، كانت (ماريســـك الاباما) راســـية على رصيف الميناء حيث كان يتم تحميل السفينة بواسطة عدد 2 (ونش) لنقل الصناديق الضخمة لظهر السفينة، وقتها ســـرت عبر الممر كي أصعد إلى السفينة، صعدت إلى السفينة ثم إلى مكتبي لأقابل القبطان الذي ســـيغادر، والذي كان يحمل محلي في العمل لحيـــن وصولي، غادر الكابتن وبدأت في وضع حقيبتي في حجرة إقامتي والتي كانت متصلة بحجرة المكتب في الطابق الأســـفل من الكوبري الرابط بجوانب الســـفينة، وكـــي أنتقل من حجرتي إلى الكوبري في السفينة، كان عليَّ السير بطول الممر إلى الباب الأوسط، وعند فتحه أجد نفسي في المدخنة أو مدخل السلم الأوسط، وبعد عدة خطوات صعودًا، أجد نفسي وسط كابينة قيادة السفينة بالكامل.

مكان الإعاشة الخاص بالطاقم، كنا نطلق عليه (القصص السبعة) وقد تم بناؤه في الأعلى من مؤخرة السفينة وهو يشبه الشقق الصغيرة من ناحية التصميم، والذي كان يحتوي على أماكن النوم، حجرة الطعام والتجمع، مشفى صغير للعلاج وكان فوق الكوبري، كما كان ينحدر من

الســـقف نوافذ ضخمة مصنوعة من المعدن ومحاط بها مطاط مقاوم للتعفن وكذلك الأرضيات..

مراقبة ما يدور حول السفينة في الخارج، كان يتم فوق الكوبري، حيث المســـاعد ومن معه من عاملين يداومون على النظر إلى الخارج ومســـح المنطقة في الأفق، فكان عليهم اليقظة الدائمة، يبدو المنظر عند النظر لأميال حولنا كأننا في بيتٍ وسط حديقة، كما كان الكوبري نفسه هو محطة القيادة والتي بها نستطيع التحكم في قيادة السفينة وتوجيهها، ويوجد منصة إلكترونية بها أجهزة الملاحة المساعدة.

حيث أيضًا هناك تجد أجهـــزة الرادار.. (رادار) ليس كهذا الأنبوب من القطب الســـالب الذي رأيته في فيلم (همفـــري بوجارت).. هذه الأيام (الرادار) له شـــكل يشبه التلفاز، والذي يظهر السفن حولنا مثل نقاطٍ صغيرة، ويمكن من خلال النظر في الجانب الأيمن من أســـفل الشاشـــة، اكتشاف بيانات ومعلومات عن القطع التي تبحر حولنا مثل ســـرعة القطع، أقرب نقطة للوصول، حيث تخبرك بأقرب نقطة والتي بها يمكن حـــدوث تصادم، والتوقيت الذي ســـتصل إليه تلك القطعة البحرية بالقرب من ســـفينتنا، وبجانب تلك المنصة يوجد لوحة كبيرة عليها جداول، وهذا من اختصاص المساعد الثاني، رجل المكتب على الســـفينة، حيث يؤدي عمله، وتوجد أجهزة لمعرفة أحوال الطقس في كل اتجاه وكذلك أنظمة الســـلامة والأمان، وهذه الأجهزة القياسية الآن صـــارت بديلًا عن الكمبيوتر وأجهزة الاتصال عبر الراديو، وعلى رأس

كل هذه الأجهزة، الجهاز الذي يهمني في المقام الأول بعد استيقاظي كل صباح، ألا وهو جهاز صناعة القهوة.

في الجنـــاح الذي به الكوبري يوجد بابـــان يفتحان على المنصة المكشـــوفة ومكان الميناء، وبعد أن تسير في ممر طوله 18 قدم، فهو يســـتخدم للمناورات والمساعدة في إرساء الســـفينة، وهذه الأجنحة تساعد في رؤية جانبي السفينة وتجنب الاصطدام برصيف الميناء أو الاصطدام بأي سفينةٍ أخرى من الجانب.

ويوجد فوق الكوبـــري، الكوبري الطائر، وهـــي منصة مفتوحة ومكشوفة وتعتبر أعلى نقطة في السفينة.

كان كل سطحٍ أســـفل الكوبري مكتوبًا عليه (حرف).. حيث كان مكان إقامتي في الســـطح الذي يحمل حرف (E) (إي) وكذلك كبير المهندسين، أما المهندسون وباقي أعواني في الملاحة فكانوا مقيمين بالرصيف (D) (دي) أما (C) (ســـي) فكان لباقي البحارة.. أما (A) (ايه) و(B) (بي) فكانا بهما أماكن إضافية للإقامة، ويوجد مســـاحة حيث نجلس ونأكل فيها وهـــي عادةً ما تكون غير مرتبة على الإطلاق وبجوارها مكان المشفى.

وعلى الســـطح الرئيســـي كان هناك (المكتب).. وإذا هبطت إلى الأســـفل، وتحديدًا تحت أماكن الإقامة في باطن السفينة تكمن حجرة المحـــركات، وبجوارها نجد منطقة تخزيـــن البضائع وكل متعلقات السفينة كمنطقة حاويات وقود السفينة وحاويات خزانات المياه، وهي

خلف حجرة المحركات، وأسفل السطح الرئيسي توجد معدات توجيه السفينة.

قضيت معظم الســـاعات القادمة متجولًا داخل (ماريسك الاباما) بعين الكابتن الفاحصة، وأول ما لاحظته أن بعض بوابات الممرات لم تكن مغلقة جيدًا، وكذلك الكثير من الأبواب مفتوحة وغير مؤمنة، باب حجرة المحركات، والباب المؤدي إلـــى الكوبري، ومنطقة الخزانات، فكانت أماكن مفتوحة.. سهلة الاقتحام من قبل أي غريب، حيث سيجد كل الأبواب مفتوحة على مصاريعها حتى ولو كان جميع طاقم العمل متواجدًا على ظهر الســـفينة، ومن المفترض أن تكون جميع الأبواب مغلقة بإحكام، أما الزنزانة الخاصة بأي قرصان أو مقتحم كان بابها مفتوحًـــا أيضًا، حيث أن هذه الزنزانة مصنوعة من القضبان الحديدية بجوار السلم والذي يربط بين السطح الرئيسي والكوبري في الخارج.

فبعد أن تتســـلق المصعد عليك بإغلاق ذلـــك الباب المصنوع من الأسلاك المتشـــابكة وغلقه بإحكامٍ في القضبان الحديدية الملتحمة ببعضها البعض، وهذا الباب ذو الأسلاك المتشابكة، من شأنه أن يمنع أي مقتحمٍ من الصعود إلى الكوبـــري، وبذلك يمكن أن يحدث تهديدًا لمركز قيادة السفينة.

لدي معرفة جيدة للغاية بســـفينة (ماريســـك الاباما) حيث كنت قبطانًا عليها من قبل، كانت ســـفينة حاويـــات، فكانت تحمل بضائع مثل قطع غيار سيارات تويوتا، أجهزة تلفاز، بلازما التي تشاهدونها، أو ملابـــس ماركة (ريبوك) التي يرتديها الجميـــع.. (فبدون البحارة

التجارية لن يكن هنـــاك وجود لمتجر مثل وول مارت) فعادةً لا يعمل البحارة التجاريون على أجمل الســـفن في العالم أو اليخوت الفاخرة، فليس لدينا رفاهية الوقوف على سطح المركب ونحن نحمل في أيدينا كؤوسًا مليئة بالخمور الفاخرة.

لأننا نقوم بأعمالٍ مشـــابهة لســـفن الصيد وأحيانًا مثل البارجات الحربيـــة، وأحيانًا أخرى مثل حاويات النفط.. (ماريســـك الاباما) تم بناؤها منذ عشـــرة أعوام في الصين.. طولها 508 قدم وعرضها 83 قدمًا، وقد تم طلاؤها باللون الأزرق على الهيكل واللون البيج في البنية العلوية.. مثل أغلب الســـفن التي تمتلكها شركة (ميرسك).. اثنان من (أوناش) حاملي الحاويات، طول كلٍّ منهما40 قدمًا، بينما الارتفاع 6 أمتار، وهما مثبتتان في الأمام وفي الخلف، وبذلك يسمح لنا بتحميل أو تفريغ الحمولة بسهولةٍ وسرعة من فوق أي رصيف ميناء، حسب سير الرحلة، السرعة القصوى للسفينة هي 18 عقدة مولدة من محرك ديزل أحادي، وتقـــدر حمولتها بـــ 1.092 حاوية نمطية، أو ما يعادل عدد وحدات من ذوي 20 قدمًا، أي أنها تستطيع أن تحمل 1.092 حاوية، والتي تكون متراصفة فوق بعضها البعض في الميناء أو نراها أحيانًا.. تقوم بحمل واحدةٍ منها على ظهر سيارة نقلٍ ثقيل في أمريكا مثلًا.

فحجم السفينة يعادل ألف قطعة بحرية أخرى.. في الثلاثة شهور القادمة ستكون السفينة بمثابة بيتي، عملي، ومسؤوليتي.

كنا في الوضع الجغرافي على خط (شـــرق أفريقيا 4) والتي تتجه من صلالة (عمان) إلى جيبوتي (جمهورية جيبوتي) ومومباسا (كينيا)

عبر المحيط الهندي.. وأحيانًا نتوقف في ميناء دار الســـلام (تنزانيا) أثناء الرحلة.. لكن هذه المرحلة فلدينـــا ثلاث محطات للتوقف، كنت دائمًا أرى خطوط شرق أفريقيا الملاحية.. خطوط جيدة ومريحة في العمل مقارنة بخطوط نقل السيارات عبر السفن من (يوكوهاما) إلى الولايات المتحدة، وفي توقيتٍ زمني صعب للغاية، فهذه الرحلة تنبئ بطقسٍ مشمس، موانئ شائقة للوصول إليها، رحلة متماسكة خطوط الإبحار، فهي تعد واحدة من أفضل الرحلات الملاحية التي عملت عليها (وأشعركم أنا محطوط للعمل عليها، تحمل معنا 17 طنًّا من الحمولة والبضائع، منها 5 أطنان من إمدادات برنامج الغذاء العالمي، وهو ما نسميه (طعام الشد على الأيدي).. قمح، حبوب بازلاء، وكل ما يحتاجه الإنسان للإعاشـــة، حيث ينتقل الغذاء من تلك الموانئ على بعد أميالٍ طويلة ليتم توزيعه في بلدان مثل: رواندا، والكونغو، أوغندا، والبلدان التي ليست لها أي منفذ (الحبيسة) للحصول على الغذاء.

كل قطعةٍ من تلك البضائع، كل مصباحٍ كهربائي، كل زوجٍ من الأحذية وكل جالون من الوقود، والتي ينتهي بها المطاف إلى هذه البلدان، لا بد وأن يمر عبر اثنين من الموانئ (مومباسا) أو (دار السلام).. وقد وصل إلى مسمعي فيما بعد من أحد المسؤولين في مركز الإغاثة الكاثوليكي، أن 23 حاوية والتي على (ماريســـك الاباما) سوف توزع في رواندا.. والتي تمثل إمدادات تكفي لســـتة شهور لمساعدة اللاجئين التي تهتم بهم كحالات في مركز الإغاثة، وإذا تأخرت تلك الإمدادات أو ســـرقت،

ربما يؤدي هذا إلى الموت أو الجوع لدرجة الموت لكلٍّ من هؤلاء الرجال والنساء والأطفال اللاجئين.

عندما تصعد إلى الســـفينة، فربما تريد الإبحار سريعًا، لكن هناك آلاف الأشياء التي يجب أن تراجعها وتتأكد منها، فعند الإعداد للإبحار.. نبدأ بالأساســـيات: ما هي مواعيد الطعام؟ هـــل الأوناش والرافعات تعمل؟ هل هناك أي تسريب في الأنابيب؟ هل الضابط الثالث البحري كان جالسًـــا في حجرته مكررًا كلمات وجمل؟ كنت دائمًا ما أقول كل الســـفن تختلف عن بعضها ولكن العمل داخل السفينة فإنه متشابه عادةً، عليك أن تتعلم وتعرف القطعة البحرية أولًا ثم عليك بالعمل مع طاقم جاهز للإبحار.

حتى هؤلاء الرجال فيشـــتاقون لمغادرة السفينة والسفر جوًّا إلى عائلاتهم وأطفالهم وصديقاتهم، مع وجود مخزونٍ من (البيرة) يكفي ثلاثة شـــهور، لذلك عليك أن تحدد كل ما يحدث على سطح السفينة، التقيـــت بطاقمي، كنت قـــد عملت مع كبير الضباط من قبل (شـــين ميرفي).. فهو صغير السن، ذو بنية قوية، ولديه خبرة بالعمل اليدوي والإصلاح.

كان (شين) مباشـــرًا وصريحًا في تعاملاته، فله قلب طفل وعقل كابتن بحار، ولقد التقينا في ظـــروفٍ غريبة للغاية في أول رحلةٍ لنا سويًّا.

كان مسافرًا عبر مطار (عمان) متجهًا إلى السفينة.. إلى أن أوقف أحد رجال الجمارك متخذًا قرارًا بمصـــادرة الأقراص الممغنطة التي

يحملها (CD) وهذا يحـــدث كثيرًا، وعادةً ما ينتهـــي المطاف بأخذ موظف الجمارك تلـــك الأقراص والاحتفاظ بها لنفســـه لتقبع داخل مكتبته الصوتية مع باقي الموسيقى والأغاني.

ولم يتمالك (شين) نفســـه وانفجر بوجه ذلك الموظف بالجمارك وانهال عليه بالسباب، وتم القبض عليه بتهمة إهانة موظف حكومي، وبعد مرور ثلاثة أيام من وجوده داخل زنزانة حارة للغاية، شعر معها (شين) أنه يتم شـــواؤه، استطعنا أن نخرجه ونصطحبه معنا للذهاب إلى الســـفينة والبدء في رحلتنا، فهو مساعد كابتن ممتاز، وأنا أعرف أنني أستطيع الاعتماد عليه في الطوارئ.

(مايك بري) هو كبير المهندســـين.. حول ديانته للمسيحية، يبلغ الخمســـين من العمر، ويبـــدو عليه مظهر هـــؤلاء المطربين لأغاني (الكونتري) ومكان عمله في حجرة المحـــركات، عملت معه من قبل لمدة ثلاثة شهور على نفس هذا الخط الملاحي (شرق أفريقيا 4) كان يعمل سابقًا في القوات البحرية الأمريكية.. لا يخشى الشجار معه إذا ظن أنه على حق، وقد نال هذا الكثير من احترامي وطالما شجعته على ذلك، في عمل الطاقم أو الرؤساء أحيانًا تحدث أشياء على السفينة مما يستدعي الفرد منا التصرف سريعًا وإكمال عمله بشكلٍ تلقائي.

عندما تواجه إعصارًا، ربما يقســـم السفينة إلى نصفين، أو سفينة قرصان بســـرعة 25 عقدة، إما أن تواجه وتتعامل أو اعتبر نفسك في عداد الموتى، فكنت أنا وهو نقـــوم بالتدريب بكل حماس.. كان هناك فقط اختلافًا واحدًا، حيث يعتقد (مايـــك) أن كل فردٍ يمكن أن يتلقى

أعلى وأهم أنواع التدريب، وهـــذا نابع من خلفيته التي أتى منها وهي البحرية الأمريكية، أما أنا فكنـــت أعتقد أن بعض الرجال من الصعب عليهم، الكثير حتى الأساسيات، وكان عليك أن تقوم بتعديل هذا، عليك أن تدرب الرجال كثيرًا لكن الوصول للكمال لم يكن متاحًا.

كم كنت أشـــعر بالارتياح أن (مايك) و(شين) سوف يبحران معي، فقد كان كلاهما قائدًا قويًّا في عمله.. مثالي في أسلوب تدريبه للطاقم ويقوم بإنجاز الأعمال بكفاءة، حيث الجودة في العمل أصبحت غائبة بين البحارة في هذه الأيام.

التقيت ببقية أفراد الطاقم، المســـاعد الثالـــث (كولين رايت) كان شجاعًا من جنوب الولايات المتحدة، فلم ألتقي بأحدٍ مثله مطلقًا، كان هناك أيضًا (ايه بي) (AB) في العقد السادس من العمر، ويجدر به أن يستمتع بوجوده وسط أحفاده ويتقاعد، فقد كانت أفضل فترات حياته في البحر قد ولت، أحيانًا كان عليك أن تعيد عليه شـــرح بعض الأمور الأساسية ليستطيع اســـتيعابها، وبالرغم من ذلك كان أحيانًا يصعب عليه فهمها.

والتقيت أيضًا (AB) (ايه بي) الجديد والذي قدم نفسه على أنه ثري وقد حصل على جواز ســـفره وأثبت أنه لا يمزح معي، اسمه (محمد) (ATM).. كان باكستاني وقد ربح (ياناصيب) الحصول على تأشيرة دخول أمريكا.. كان صغير السن ذو عينين لامعتين، ويبدو عليه القدرة في شغل منصبه وبقية الطاقم، صافحتهم يدًا بيد خلال فترات اليوم.

جميعًا على متن السفينة، وصارت السفينة جاهزة للإبحار ومغادرة الميناء، لم يكن لدينا المزيد من الوقـــت، فعادةً يقوم القبطان بإلقاء بعـــض التعليمات على الطاقم، ولكن طاقمـــي كان يبدو عليه الخبرة والكفاءة ما عدا ذلك الرجل الذي تخطى الستين عامًا.

تركيبة الوظائف والتعليمات في الســـفن التجارية تشـــابه بشكلٍ كبير نظيراتها في القوات البحرية العســـكرية، حيث أن القبطان هو المسؤول عن الطاقم، الســـفينة وكل شيءٍ عليها، ويأتي بعد القبطان ثلاثة أقسام: قسم القيادة في الأعلى ويقوم بإدارته المساعد الأول لي، ونطلق عليه اسم (الزميل على السفينة).. قسم المحركات: حيث يقوم بإدارته كبير المهندسين ويطلق عليه (الكبير على السفينة).. والثالث هو قسم الخدمات: (ويقوم على إدارته كبير الخادمين).

أما المســـاعد الأول لي (الزميل) فهو مسؤول عن البضائع، الأمن، الأمور الطبية، الصيانة، التخزين، التحميل الآمن، وأي شيءٍ آخر يتعلق بظروف الطقس.

ويأتي بعده في المهام الوظيفية، المســـاعد الثاني ونسميه (زميل الأوراق) وهو المسؤول عن الملاحة، مراجعة الجداول، ومتابعة الأجهزة الإلكترونية على الكوبري وهو مخطط الرحلة، وهو المسؤول أيضًا عن وضع الأســـماء والعلامات على كل الأمور التي تخصنا كأفراد، وإعطاء جميع الأمور الورقية في أقسامها للأفراد، أما المساعد الثالث، فهو يعد في مرحلة المبتدئين، إذ أنه يهتم بأجهزة السلامة ويقوم بتنفيذ كل ما يطلبه منه المساعد الأول (الزميل).

ويأتي بعد ذلك، أي بعد المســـاعد الثالث.. (رئيس البحارة) وهو المسؤول عن عمل البحارة ويقوم بإعطائهم الأوامر.

ويأتي أيضًا كبير المهندســـين ومعه المساعدون (الأول، والثاني، والثالث) والذين يصبون كل تركيزهم على حركة المحركات وســـير الســـفينة، توليد القوى والعادم، الضاغـــط، المضخات والمحركات، وصيانة أي أعطالٍ تحدث، يقول (مـــارك توين) (الذهاب إلى الرحلة البحرية كالذهاب إلى الســـجن ولكن مع فرصة الغرق).. وكان ربما يتنبأ بذلك، فأنت تتخلى في عقلك عن الأفكار العادية، الحياة المريحة بمجرد أن تصعد إلى ظهر السفينة.

فالبحارة التجاريون ليسوا محاربين في نهاية الأسبوع فقط، فنحن متواجدون للعمل على مدار الساعة، اليوم، الأسبوع، فكل يوم في حياة البحر مثل بداية أيام الأسبوع للعمل، يوم الاثنين، فأيام العمل لا تنتهي وتمتد لمسافاتٍ طويلة.

أتمتع بسمعةٍ طيبة للغاية في مجال العمل البحري التجاري، فأنا معروف عني الحزم وأنا بالفعل كذلك، فكل قبطان مسؤول عن أرواح طاقمه في قبضة يده ولم أقبل أبدًا أن أضيعهم بســـبب أن أحدهم غير مستقر أو كثير الخطأ.

شـــقيق (أندريا) يعمل أيضًا قبطانًا، قد صرح لها ذات مرة (على ظهر السفينة يكون ريتشارد شخصًا آخر مختلف عن المرح، المحب الـــذي نعرفه جميعًا (لدرجة أنك تراه لأول مـــرة) أحب المرح في أي

مكانٍ أتواجد فيه لكن ليس في العمل حيث احتياجات السفينة لا يمكن تجاهلها.. ولن أسمح بحدوث هذا على سفينتي.

كان أول أمـــر لي في العمل هو اطلاع الطاقم الغير واعٍ للتعليمات، أنه علينا أن نطبق معايير الأمان بكل حزم.

كانـــت تأتينا الأخبار من (الصومال)... فقـــد كان الجميع يعلم أن القراصنة هناك يعيثون بفســـادهم الفوضى فـــي الخطوط الملاحية للسفن.

فقد كان الخط والمسار الملاحي المعتاد للسفن حول منطقة القرن الأفريقي، تجعلك تبحر على مســـافة 20 ميلًا قبالة سواحل الصومال، ولكن منذ العام 2005 عندما شرع القراصنة في نشر إرهابهم للسفن البحرية التجارية، فأصبح كل قبطان يبتعد بسفينته إلى 50 ميلًا أمام الســـواحل الصومالية ثم زادت بعد ذلك إلـــى أبعد.. إلى 100 ميل ثم 200 ميل كي تستطيع الهرب وعدم الوقوع في نفس خطوط الملاحة التي يسيطر عليها قاطع طرق السفن التجارية.

فأصبحت المسافة التي نقطعها في خمسة أيام كالمعتاد، تزيد إلى عشرة أيام.. الســـفن لا تزيد أو تضاعف زمن رحلتها إلا إذا كان هناك خطر حقيقي يداهمهم من أناس ينتظرون هذه الفرصة.

لكن للاســـم، مهما بعدت السفن على الســـواحل، فكان القراصنة يقومون بتتبعهم واللحاق بهم ثم خطفهم.

بمجرد أن تمت جميع الاســـتعدادات على (ميرسك الاباما).. بدأت تتدفق عليَّ رسائل عبر البريد الإلكتروني (إيميل) من المكتب الرئيسي للمخابرات البحرية وبعض المؤسســـات الأمنية، وكلها عن القراصنة: يظهر على الرادار قطع غامضة تقوم بالمطاردة – مستخدمة الأسلحة – مستهدفة السفن – سفن الصيد – اليخوت، فكانوا يهاجمون الجميع. ... يمينًا ويسارًا.. وكان هذا بمثابة شأن عظيم أن تحاول الإبحار حول مناطق الساحل الصومالي في خليج عدن، في المياه العميقة أحواضنا بطول 920 ميلًا وبعرض 300 ميل، في المســـافة الواقعة بين اليمن والصومال في القـــرن الأفريقي، ويقدر بنحو 10% من بترول العالم يتـــم إمداده عن طريق ســـفن تبحر في خليج عـــدن، فنجد حاويات البترول تبحر من موانئ الســـعودية عبر البحر الأحمر ثم إلى الخليج ثم إلى بحر العرب، وبعدها تجد طريقهـــا إلى أوروبا وأمريكا وهذه السفن تحمل شحنات بمليارات الدولارات والتي تمر من أمام الساحل الصومالي كل عام.

وقد أصبحت ســـيرة البحارة تأتي في معظم الأنباء وتصنف هذه المنطقة من أكثر المناطق الغير مســـتقرة، والتي حولت المنطقة في خليج عدن والســـاحل الصومالي إلى ساحةٍ لإطلاق النيران، فكل من يبحر في هذه المنطقـــة يقع تحت تهديدٍ دائم من مهاجمة القراصنة، الذين زادت خبرتهم ومستوى العنف لديهم شهرًا بعد الآخر، مجموع مبالغ الفدية التي دفعت تزيد على عشرات الملايين كل عام، وكان هذا

يشـــجع ويغري الرجال المحتاجين للخروج إلى هذه المنطقة حيث يلتفون على هذا العمل ويلتصقون به التصاق النحلة بالعسل.

وكان هذا هو الطريق الملاحي الذي سوف نسلكه، حيث أن المحطة القادمة لنا هـــي ميناء (جيبوتي) والذي يقع في نهاية الجانب الغربي من خليج عدن.. فكان علينا أن نبحر سريعًا، نقوم بتفريغ الحمولة، ثم ننطلق بعيدًا قبل أن يستطيع هؤلاء الأشرار الوصول إلينا.

أرسلت (إيميل) سريع إلى (أندريا) قائلًا: "إنني وصلت إلى السفينة بسلام، ونحن الآن نستعد للإبحار.. لن أستطيع محادثتك هاتفيًّا حيث المكالمة مكلفـــة للغاية." وأخبرتها أنني بالفعل على متن الســـفينة وأطيل التفكير بها.

وكانت (أندريا) تفتقد هذه الأيام، عندما كنت أكتب إليها الخطابات الطويلة أو بطاقات المعايدة، فكنت حريصًا دائمًا أن أرسل لها خطابًا طويلًا عن رحلةٍ تمتد لأسابيع شارحًا لها من أي محيطٍ بعد الآن، وماذا عن الطقس؟ وماذا يفعل البحارة؟.. في البداية كنت أقوم بالتوقيع على البطاقات باسم (ريتش) (R.H) ذلك عندما كنا في علاقةٍ قوية وليست علاقة حبٍّ، وقد استغرقت وقتًا أطول كي أطور من نفسي، وأكون في مكانةٍ أقرب إلى قلبها، فما زالت (أندريا) تتذكر عندما تسلمت خطابًا مني قبل زواجنا.. وفي نهاية الخطاب قلت: "حبيبك آر" Love R.

كانت متعجبة للغاية، حيث هذه هي المرة الأولى التي تحدث فيها نفســـها قائلة: "آها.. يبدو أنه جاد." وكانـــت (أندريا) تحتفظ بكل خطاباتي التي كتبتها إليها.

كنت أهاتفها مرات عديدة من مناطـــق مختلفة من العالم، وكنت دائمًا أســـتخدم نفس خط الاتصال المفتوح، فعادةً ما تكون (أندريا) نائمة، وعندما تلتقط ســـماعة الهاتف وتسمعني أتحدث بنفس صوت (بـــاري وايت) قائلًا: "هل زوجك بالبيت؟ تقول: "لا.. في الحقيقة هو ليس موجودًا" أقول: "رائع.. سآتي إليك حالًا" لا أدري متى بدأنا هذه الدعابة لكنها أصبحت الدعابة الخاصة بيننا.

وكانت أكثر ما تحب هو الخطابات خاصةً التي أكون فيها في قمة الشـــاعرية والحس المرهف، فمرة كتبت لها قائلًا: "أفتقد الارتماء بين ذراعيك" كيف لها أن تقاوم ذلك؟ وفي خطابٍ آخر قلت: "سوف أرى صورتك في القمر"

وقد شرحت لها أهمية القمر، البدر المكتمل للبحارة حيث يمثل لهم الخط الجيد وعندما أنظر إلى القمر.. أتخيلها تنام تحت هذا القمر على بعد آلاف الأميال، لذا أصبح القمر (البدر المكتمل) ملكًا لنا.. وطريقة خاصة للتواصل بيننا، وعندما كان الأطفال صغارًا، كانوا ينظرون إلى السماء الصافية في (فيرمونت) قائلين: "انظروا إنه قمر أبي" وكانت (أندريا) تعقـــب: "هذا صحيح" وكانا (دان وماريا) ينظران إلى أعلى حيث القمر قائليـــن: "تصبح على خير يا أبـــي، أينما كنت" وكانت (أندريا) تفعل كل ما بوســـعها لتبقي علـــى العلاقة بيني وبين الأولاد متصلة حتى في غيابي.

كنت دائمًا أحب الأطفال، وكانت إحـــدى الوظائف التي عملت بها قبل أن أنضم إلى البحرية التجارية، هي العمل مع الأطفال المصابين

بالانفصام في الشـــخصية، وكم كنت أستمتع بالعمل معهم، حيث أن العمل مع الأطفال هو مقدمة جيدة وفترة تأهيل للعمل مع طاقم العمل، هـــذا ما صرحت به لـــــ (أندريا) وهي حقيقة، لدرجة أنني اخترعت وابتدعت شيئًا يسمى (حجرة البكاء) على السفينة، حيث يكون بمثابة نادي روحاني صغيـــر لطاقم العمل والذين يعانون من المشـــكلات أو المشـــاحنات فيما بينهم.. وكنت أكتب إلى (أندريا) وأخبرها بتلك الجلســـات وكيف أنه في إحدى المرات، أتى أحد أفـــراد الطاقم إلى (حجرة البـــكاء) وبدأ في الصراخ بصوتٍ مرتفع قائلًا: "لقد أشـــهر السكين في وجهي" ثم يرد التهمة عن نفســـه فيقول البحار الثاني: "نعم، ولكن بعد أن رفع على رأسي عصا حديدية".. كنت أستمع إليهما متحليًـــا بالصبر وأتركهما ليتحدثا وأعطي لهما الفرصة لإخراج كل ما هو ســـلبي داخلهما، وفي النهاية أقول: "دعنا نصافح بعضنا البعض ونعود إلى العمل".. لم يكن كل قبطان يفعل هذا، ولكنني شعرت أنها مهمة لتكوين مركب أفضل.

عندما أغادر رحلتي على الســـفينة، عادةً ما تقوم (أندريا) بوضع صورةٍ لي على الثلاجة، بجوار صورةٍ للسفينة، وكنت عادةً أجد قائمة طويلة من الأسئلة في انتظاري عند عودتي من الرحلة، ولكن الأهم من ذلك هو أن نتشارك في القمر (البدر المكتمل) سويًّا، فكانت (أندريا) تعتز بهذا القمر لأنها تعتقد أنه دائمًا ما يعيدني سالمًا بالقرب منها.

الفصل الثاني

قبل 8 أيام

خليج عدن: ســـفينة البضائع الســـائبة (تيتان) تم اختطافها في 19 مارس 2009 وفي تمام الســـاعة الثانية والنصف ظهرًا بالتوقيت العالمي في وضع 35: 12 شمالًا – 21: 47 شرقًا، 6 من الرجال كانوا على متن زورق ســـريع ومسلحين ببنادق (ايه – كي 47 اس) وبعض المسدســـات وقاموا باختطاف السفينة، وقد تمكنوا من السفينة تمامًا وأحكموا سيطرتهم عليها وأبحروا بها إلى مياه الساحل الصومالي.

خليج عدن: سفينة بضائع (دايموند فالكون).. أطلق عليها النيران في 14 مارس 2009 في الساعة 29: 6 صباحًا حيث كانت في طريقها 42: 13 شمالًا – 19: 49.. شرقًا، وعلى بعد 50 ميلًا من جنوب شرق مدينة الموليكان – اليمن.. حيث قام اثنان من المجرمين وبعض الرجال بالصعود إلى السفينة مسلحين ببنادق آلية وقاذفات (آر – بي – جي) والتي أطلقوا منها قذائفهم على الســـفينة، وقد حاول كابتن السفينة

المراوغة وإطالة الوقت وقام بالمناورة في التحاور مع القراصنة، إلى أن ترســـل إحدى المراكب الحربية التركية التي كانت قريبة، اثنين من طائرات الهليكوبتر لتقدم لهم المســـاعدة بجانب وجود إحدى القطع الحربية الدانمركية بالقرب منهم، بعدها قام الرجال الذين اســـتقلوا زورقين، بالهروب بعيدًا عن المشهد بعد تأكد وصول القطع الحربية.

قمنا بتجهيز كل الأمور المتعلقـــة بالعمل واخترنا الأول من أبريل لتغادر السفينة ميناء (صلالة).. اســـتيقظت في الخامسة صباحًا، راجعت أحوال الطقس وبعدها بدأت الروتين اليومي في العمل.. أتجول في جميع أرجاء الســـفينة للتأكد من أن كل شيءٍ يسير بشكلٍ سليم، وليس هناك أي تســـريب في الأنابيب، وقد تم تحميل آخر حاوية من على الرصيف إلى داخل السفينة، وقمنا بدفع مستحقات طاقم العمل المغادر، واستقبال الطاقم الذي سيعمل معي، وأحضرنا كل متعلقاتنا وإمداداتنا إلى السفينة، الطعام، بعض أشرطة الفيديو، الوقود.. بهذا كنا جاهزين للإبحار، وفي حوالي الساعة 6.30 صباحًا كنت في منطقة الكوبري، احتسي أول كوبٍ من القهوة، وأنظر إلى الشمس التي قد بدأت تسطع بشدة وكأنها مشتعلة على ســـطح الماء، وقد تحولت السفينة إلى ما يشـــبه خلية النحل، الرافعات، والرجال، وتثبيت الحاويات في أماكنهـــا.. حركة دائمة، لكن حركة الأمواج في البحر كانت هادئة ومع وجود الشمس ساطعة في الأفق، مع وجود بعض من رذاذ الماء العالق في الجو، عندما تكون بحارًا، فإنك تعود إلى الحياة البدائية، حيث أنك تستيقظ مع سطوع الشمس، وتنام مع اختفائها وهطول الظلام، حيث

أن الشـــمس تنظم حياتك كل يوم، لم أعد أستطيع الانتظار كي يبحر في المياه،

وسبب حبي للعمل في البحر، هو أنني أنظر من فوق السفينة وأنا متأكد أن كل يومٍ في البحر مختلف عن ذي قبل، فالبحر لا يبدو متشابهًا كل يوم، حيث يتغير لون المياه من أزرق إلى أسود أو أخضر شفاف، فالرجال يلجأون للبحر لأســـبابٍ مختلفة، حيث الحصول على فرصة العمل في الهواء المنعش المفتوح، وأحيانًا بسبب عشق المحيطات، أو بسبب توارث المهنة عن الآباء والأجداد، وأحيانًا يظن البعض أنه عمل سهل براتب كبير (ليست حقيقة) ولكنك إذا لم تكن تحب صباحًا كهذا حيث أن الرحلة ما زالت قادمة، فالأحرى بك أن تبقى في بيتك أو اذهب للعمـــل في أحد المصانع التي تصنع الأفران، فإذا كنت بحارًا، مغادرة الميناء دائمًا تذكرك أنك تريد أن تصنع مســـتقبلًا لنفسك بالرغم من المخاطر أو الضجر والملل أو الشعور بالوحدة.

بينما نحن نســـتعد للإبحار، كنت في الأعلى في منطقة الكوبري أتحدث إلى موجه الميناء أو مرشـــد الســـفن، والذي يرشدنا للخروج من ميناء صلالة، حيث صاح المرشـــد: "انطلق ببطءٍ للأمام".. أجاب المســـاعد الثالث بينما كنت أراقب سرعة دوران المحركات حيث كنت أتأكد مـــن كفاءتها إذا أردنا الإبحار بأقصى ســـرعة.. نحن الآن على وشك الإخلاء من الميناء والمغادرة، هبوط الكابتن السابق إلى رصيف الميـــاء.. والآن نتحرك ببطءٍ مغادرين ميـــاء (صلالة) إلى المحيط الهندي.

في كل مرة أغادر فيها الميناء، دائمًا ما يأتي إلى مخيلتي وأفكر كيف التحقت بهذا العمل، حيث لم يكن يبدو على الإطلاق أنني سأصبح كابتن بحار في يومٍ من الأيام، كنت فقط أريد أن أكون بحارًا.. يلتقي بالفتيات ويقضي وقتًا ممتعًا، وكنت وقتها لا أدري شيئًا ولم أسمع من الأساس عما يسمى بحرية تجارية، في الواقع نشأت في مقاطعة (وينشستر) في ولاية (ماستشوستس) بعيدًا عن (بوسطن).. وقد كان الشك يساور الكثيرين، أنني لن أستطيع أن أكون أكثر من مرتادٍ للحانات.

كانت مشكلتي الأساسية أنني دائمًا متمرد ويصعب السيطرة عليَّ، كما كان اسمي الحركي في المدرسة الثانوية هو (جانجل) أي (الأحراش) وأستطيع أن أقول أنني فعلًا كان ينطبق عليَّ هذا الاسم، حيث كنت أنا وأصدقائي نتواجد أحيانًا في الحانات في أطراف مدينة (بوسطن) أو (كامبريدج).. وكنا نجد صعوبة في العودة.

في إحدى المرات في بداية السبعينات، كنت أنا وأصدقائي نتسكع حول مدينة (بوسطن) ونحن نحتسي (الجعة) (البيرة).. ووجدنا أنفسنا وسط تجمعٍ كبير من الناس، وكان هذا أحد المهرجانات المقامة في الشوارع، وفي لحظة ذهولنا حاولنا الخوض وسط المهرجان، لنجد طريقًا للخروج من وسط الزحام.. واكتشفنا أننا في أحد المهرجانات يدعى (ماو مار).. هذا المناضل المعتوه الذي حاول أن يعظ الناس بالثورة، وعندما رآنا المتحدث في المهرجان، تجمد في مكانه وانهال علينا الجميع بالضرب، وكنا ليلتها محظوظين أن استطعنا الخروج

وسط هذا الجمع الغفير، لكن وللأسف كان هناك بعض الشباب من (وينشستر).. حظهم أسوأ بكثير، حيث قضوا ليلة سيئة للغاية.

في (بوسطن) يجب أن تكون قوي الشكيمة حيث تستطيع حماية نفسك والعيش بدون أذى، خاصة في الستينات والسبعينات من القرن الماضي، وفي الحي الذي نشأت فيه كانت الإهانات الفظة شيئًا معتادًا، وفي الوقت نفسه كان أيضًا مليئًا بالأشخاص المرتدين للخلف لزمن الغاب حيث لم يكن لدى أحدهم أدنى مشكلة، أن يصفعك على وجهك، ليختبر رد فعلك ومدى قوتك، وقد حدث ذلك معي بالفعل، فقد حاول أحدهم أن يختبر قوتي، ولم أرتد للوراء بل أثبت له كم أنا قوي، وكان معروفًا عني.. أنني لا أهرب من المعارك التي أزج بها، فإذا كنت ضعيفًا فلن تغادر حجرتك حتى يأتي ميعاد دخولك الجامعة.

بعض من صلابة شخصيتي وعنادي يرجع إلى أجداد أجدادي حيث ورثت منهم تلك الصلابة، كانوا يقطنون منطقة (فيدليس واي) في حي (برايتون) حيث هي منطقة يصعب العيش بها في ذلك الوقت، وما زالت على هذا الحال حتى اليوم، حيث هاجروا من مقاطعة (كورك) ووصلوا إلى أمريكا حيث هي أرض منخفضة وممهدة، وهذه الأيام السوداء تركت أثرًا عظيمًا لديهم، حيث لم يعد أجدادي يملكون شيئًا في إيرلندا، وما أذهلني أكثر أنهم كانوا يصنعون كل شيءٍ بأنفسهم ولا يهدرون أي شيءٍ على الإطلاق، يصنعون الصابون ويخبزون الخبز، ويحيكون الستائر وفي الغالب كانوا يغزلون ملابسهم بأنفسهم في إحدى المراحل.

كنت واحدًا من ثمانية إخوة، أربعة أولاد وأربع فتيات، وكان جميع إخوتي يكرهون الذهاب إلى بيت جدي وجدتي، منزل (فيلبس).. حيث أنه وقت تناول العشاء لا تستطيع أن تأخذ المزيد من الطعام، تأكل ما يوضع أمامك فقط، وإلا فلن تأكل شـــيئًا على الإطلاق، ونادرًا ما كنت أرى جدتي تبتسم.

أمر مضحك، لم أفكر في كل هذه الأشـــياء وقتها وأنا صغير، ولكن مشاهدتي للطبيعة والحياة القاسية التي عاشها أجدادي، وكيف كانوا يعملون بجد فقط ليظلوا على قيد الحياة، حفرت كل تلك المشاهد في ذاكرتـــي وعقلي، لقد بنوا حياتهم من الفتات والقشـــور التي حصلوا عليها في حياتهم.

أمرٌ واحد فقط لم ينقص من بيت جدي، ألا وهو العمل المتواصل، ومن خلالهم رأيت كيف كانت البدايات!

تنحدر أصول عائلة أمي من مدينة (ركسبري) وهي منطقة جميلة في (بوســـطن) وكانا أبواها يعملا بالتدريس، فهي من عائلةٍ تؤمن أن التعليم هو كل شيء، لم أكن طالبًا مجتهدًا للغاية، لكن أمي جعلت مني قائدًا ممتازًا، جعلت مني إنسانًا يريد أن يطور من نفسه دائمًا، هذا إلى جانب وضع رأسي في الكتاب للمذاكرة حينما كانت تسنح لها الفرصة، كانت أمي كالمادة اللاصقة المثالية التي جمعت العائلة سويًّا دون أن تفرط فيها، كانت سيدة حنون وعاطفية، تهتم بكل شيء، إذا كانت لدي مشكلة فدائمًا ما ألجأ إليها.

دائمًا ما كانت (أندريا) تقول عن أبي؛ أنه مثل الرياح وقت الإبحار وأمي هي الشـــراع الذي يصد تلك الرياح، فكانت تحافظ على التوازن والتجانس في الأسرة، فبدونها ربما كانت أسماك القرش تلتهمنا الآن، كان أبي صورة نمطية من الرجل الإيرلندي – الأمريكي، في هذا الوقت، كان يقوم بعمل الكثير لك ولكن في ذات الوقت يملأ المكان كلامًا عما قدمه لك، كان قويًّا كما يجـــب أن تكون القوة.. فكان طوله 6.2 قدم، صدر عريض وجـــذع طويل ورجلان ضخمتان عريضتان وقصيرتان، كان رجل رياضي ضخم، يلعب كرة القدم الأمريكية وكرة الســـلة في نادي (نورث ايســـترن).. وهذا المكان الذي التقى فيه بأمي، وقد أثبت أبي حبه لأمي بكثرة العمـــل والجدية، هل تريد أن أحتضنك كل ليلة؟ من الأفضل أن تطلب ذلك مـــن أمك، لم يكن أبي يجيد فن التعامل مع الآخرين، كنت أحبـــه لكن كان من الصعب أن أقوم بإرضائه، فقد كان شـــعاره (افعلها صح، ومن مرة واحدة، أو لا تفعلها على الإطلاق) ثم يتبعها بمقولةٍ أخرى (أنت ذيل الحصان) وكان من الواضح لي تمامًا أنني مهما فعلت شيئًا جيدًا، فتعقيبه دائمًا: "كان من الممكن أن تتقن هذا الفعل أكثـــر" وكان هذا يغضبني كثيرًا وأقول: "تمام يا أبي، لكن هل لك أن تثني على ما أفعله ولو قليلًا؟".. تعلمت من أبي كيف يجب أن أفعل كل شيءٍ بشـــكلٍ صحيح، حيث أردت أن أثبت قدراتي أمامه وأنني لا أخطئ.. لكن دائمًا أحاول أن أفعل هذا الصواب بطريقتي أنا، وكان أبي أيضًا يعتقد عندما تتعلق الأمور بأولاده (نحن) ويقول دومًا: "أفضل طريقة للدفاع هـــي الهجوم".. في كل صباحٍ كان يصرخ كي

نســـتيقظ من الحجرة الضيقة التي كنا ننام فيها.. "ستتأخرون على المدرسة" وكان صراخه قويًّا جهوريًّا نابعًا من أعمق جزءٍ في جسده، كانت ترتعد فرائصنا عند سماعه، وكنا نختصر وقت استخدام الحمام إلى أقل وقتٍ ممكن، نأخذ الكتب بسرعة ونتسابق للخروج من المنزل لنلتقي بأصدقائنا وهم ذاهبون إلى المدرسة لنسير معهم.

وكنا نراه يقود ســـيارته بالقرب منا، حيث كان يعمل مدرسًا في نفس المدرسة، لكن نادرًا ما كان ينظر إلينا ونحن نسير، فلا يعيرنا أي انتباه، كان أصدقائي دائمًا ما يسألون: "هاي.. أليس هذا أبوك؟ لماذا لا نركب معه في سيارته للمدرسة بدلًا من السير لمسافةٍ طويلة؟"

فكنت أجيب: "من الأفضل ألا تعرف الإجابة."

فكانت الأمور أشـــبه بأن أكون نشأت مع (فينسي لومباردي) لاعب كرة قدم أمريكية شهير، وهو في أوج حالات غضبه، وقد كانت فلسفتي في الحياة دائمًا؛ هو أن تكون شخصيتي خليطًا من قسوة أبي وحنان أمي، وهذا جعلني في حالـــة توازنٍ دائم، لكن في بعض الأحيان كنت أشعر أن رأسي صلبة وعنيدة مثل أبي (كان من الأفضل أن تفعل الأمور بشكلٍ أكثر إتقانًا) مقولة أبي دائمًا.

وأكره أن أعترف أن أبي غرس بداخلي هذا الشـــعار إلى الآن، مع بعض الاستثناءات، لم أسمع من أبي مطلقًا (أنه يحبني) لا ينطق كلمة (الحـــب) أو أنه فخور بي، مع علمي أنه فخور بي، لكن لا ينطقها، أما أنا الآن فدائمًا أقول لأولادي: "أنا أحبكم كثيرًا" فنحن نتعلم ما يجب أن نتوارثه وما يجب أيضًا أن نتركه وراء ظهورنا.

كنت أبدو وأنا صغير طفلًا ذكيًّا، وكان المدرســـون يشدون على يدي في اليوم الأول للدراســـة قائلين: "يبدو أنك طفل متطلع ولديك طموح".. وأنا أفكر بداخلي (إنك حتى بالكاد تعرفني).. وأدركت أنهم يعلمون تمامًا أن أبي وأمي مدرســـان، ولم أكـــن أحب التعليم لدرجةٍ كبيرة، كان والدي يدرس الرياضيـــات وإدارة الأعمال كما كان مدربًا مساعدًا للعبة كرة القدم الأمريكية، والمدرب الأساسي للعبة كرة السلة في المدرســـة الثانوية القريبة إلى منزلنا.. وكانت أمي تدرس للصف الرابع والســـادس في مدرستي (ماسوتشوستس) و(هامشاير).. كان ترتيبـــي في الفصل يأتي من أواخر التلاميـــذ من حيث التفوق.. كنت أؤدي الحـــد الأدنى وبالكاد أمر وأنجح لأنتقل إلى الصف التالي، كانت المدرسة بالنســـبة لي، مجرد مكان للعب الرياضة والالتقاء بالفتيات ثم أصدقائي، مثل الكنيســـة أو النادي، لأنني متمرد، كان جزءًا فطريًّا وطبيعيًّا في شـــخصيتي، لم يكن باستطاعتي الادعاء أو التمثيل أنني أحب شيئًا لا أحبه، بالإضافة إلى إدراكي بقدراتٍ أخرى أمتلكها، كنت قوي البنية وأعمل بجد، وأتعلم بســـرعة، وكان دائمًا بداخلي شـــعور خفي، أنني ســـوف أكون في مكانٍ أفضل حيث أنني دائمًا محظوظ، والمدرســـون كانوا يرون ذلك ويتنبأون بهـــذا، وفي أحد الأيام.. كان مدرس اللغة الفرنســـية (دوك كوبلاند) يتجول داخل الفصل ثم قال فجأة: "جووي، أنت سوف تصير عامل بناءٍ ممتاز.. ماري أنتِ سوف تصبحين ربة منـــزل، جواني.. ربما مصممـــة معمارية، وعندما أتى

دوري، توقف والتفت إليَّ قائلًا: "أنت ســـوف تســـافر كثيرًا وتجوب العالم" كم فرحت بمقولته هذه في ذلك الوقت.

ممارسة الرياضة هي الهواية التي استحوذت على كل اهتماماتي، في ريعان شـــبابي كان لي ثلاثة من إخوتي، فكنت أود أن أهزمهم في المباريات كما كان الحال لديهم، إذا أرادوا أن يهزمونني في الرياضة.. فكنت أتنافس مع أصدقائي في صالـــة ألعاب (بوجس).. ملعب كرة الســـلة المحلي، فكنا أنا وأصدقائي الذين يســـكنون نفس الشارع، نتنافس مع الفتيان الذين يسكنون الشارع الخلفي، وفي داخل مباراة كرة الســـلة، ألحظ أنه لا يحتسب خطأ في اللعبة إلا كانت هناك إصابة مصحوبة بدم، وكانت المدرسة تحتفل وتفخر بمن يفوز، كان هذا هو الجو العام الذي ولد شـــبابًا قويًّا متحمسًا، تعلمت الكثير عن الحياة، عن القيادة وعن التابعين، وكل هذا أتى من ممارســـة الرياضة، حيث تعلمت كل شـــيءٍ تقريبًا وكان مثلي الأعلـــى هو (لا ري بيرد).. حيث كان له بنيان جسدي عادي للغاية لكنه استطاع أن يصل بمستواه إلى النجومية، عن طريق إتقان اللعبة وتقوية الجســـد، وهذا ما كان يثير إعجابي.

لعبت كرة القدم الأمريكية، كرة الســـلة، وكرة الكروس، وكل هذا في المدرسة الثانوية، كان مستواي متوسطًا في كل تلك الألعاب، وفي الســـنة الثانية في المرحلة الثانوية كنت ألفـــت انتباه المدرب، وكان يراقبني ويضع عينيه عليَّ، المدرب (ماني مارشـــال).. كان يراني في فناء المدرســـة ويأتي إليَّ وأنا بصحبة الفريق في طريقنا للاشتراك

في مسابقةٍ على مســـتوى الولاية ثم يقول: "أوه.. كيف حالك اليوم؟ عليك أن تحتسي الكثير من الحليب المحلي.. كي يزيد من وزنك بعض الشـــيء.. ليس هناك حاجة لأن تذهب إلى صالـــة الألعاب الرياضية (الجيم).. يمكن أن أســـاعدك لتعويض عدم الذهاب إلى الجيم، كيف تشعر اليوم؟ هل تشـــعر بالقوة؟.. في السنة الأولى كنت ضعيفًا في ممارســـة الرياضة، لكن بعد أن أصبحت مهووسًا بالرياضة، أحببت ممارسة الرياضة كثيرًا، وكان هناك وسائل أخرى للتسلية، لكن المدرب (مارشال) كان دائم التشجيع لي ويقول: "لا تخبر أحدًا عن اهتمامي بـــك.. أراك قائدًا للفريق في العام القام".. كنت أعرف أنني غير مؤهل بدنيًّا لأن أكون كابتن الفريق، فلم ألعب جميع المباريات طوال السنة، لم أكن أستحق هذا اللقب.

كان المـــدرب (مارشـــال) ينتظر مني الكثيـــر ويتوقع أن أنتظم التدريبات وأفهم وأســـتوعب أســـلوبه في التدريب جيدًا، والذي كان يتطلب أن نعيش ونموت على الفوز.

لم يســـتطع فهم مدى اســـتمتاعي باللعبة بغض النظر عن الفوز أو الهزيمة، فكان يصرخ قائلًا: "لماذا تبتســـم هكذا؟" فكنت أجيب: "لأنني أقضي وقتًا ممتعًا في اللعب."

كان بالنســـبة للمدرب، لعبة كرة القـــدم الأمريكية مثل العبادة، لا يمكن أن نبتسم أو نضحك مع الزملاء وخاصة عندما نخسر في إحدى المباريات، فكأنني بذلك تحولت لأكون عددًا للســـيد المسيح، فتحولت

وتدهور بي الوضع للهبوط من الكابتـــن المنتظر إلى لاعبٍ لا يفارق (الدكة).

إلى أن تركت الفريق قبل لعب مباراة النهائي في آخر الموسم ضد فريق (وبورن) لأن الرياضة لم تعد شـــيئًا ممتعًا لي، شاهدت المباراة من الخارج، وكنت أعزف على (الساكس فون) وقت المباراة مع فريقٍ يقوم بالعزف أثناء المباراة، أصنع البهجة مع الفريق الموســـيقي وأنا أعـــرف، كانت هذه هي المرة الأولى التي يقول فيها أحد اللاعبين: (لا) للمدرب (مارشال).. "لا أســـتطيع اللعب معكم لأنني أرغب في عزف (الساكس فون) مع الفريق الموسيقي".. وشعرت بالمدرب (مارشال) يكرهني للغاية بعد ذلك، وأيضًا تعلمت الكثير من وجودي مع الفريق الموسيقي، أحببت الرياضة جدًّا، لكن لم أحب الصرامة والقيود، وكان هذا هو الحال أيضًا مع لعبة كرة السلة.

في إحدى المرات استدعاني مدرب كرة السلة واستدعى لاعبًا آخر اســـمه (جانك جونســـون).. بعد أداء بعض التدريبات، توجه نحوي بالكلام أولًا قائلًا: "فيلبس، لن أستطيع قبولك بالفريق وأن تستمر في اللعب معنا، لأن والدك لم يقبلنـــي عندما كنت طالبًا وكان هو مدربًا" وقال لـــ (جانـــك): "أما أنت، فلن تلعب معنـــا لأنني لا أحبك" فقد ظن المدرب أننا ســـوف نترك الفريق، نظرنا إلى بعضنا البعض وقلنا للمدرب: "يـــا كابتن، نحن لن نغادر ولن نترك الفريق" حيث كان هذا مبدأ لدي.. (سأبقى) وخاصة إذا حاول أحدهم إقصائي.

ثم التحقت بالعمل في البحرية التجارية، وكل شخصٍ قابلته كانت لـــه قصص، مثل هذه القصص وما حدث لي، لـــم أكن يومًا من هؤلاء الأطفال ذوات الحياة الســـهلة، المرفهين، فعلت كل شيءٍ وجربت كل شيء، كنت أحدد خطوتي بنفسي.

في العام 1975 كنـــت قد قاربت أن أحقق نبـــوءة أحدهم؛ أنني ســـوف أفشـــل في حياتي، حيث حاولت العمل في وظائف مختلفة، عملت كحارس أمن في مدينة (رايثيون).. محصل شـــيكات تابع لأحد المصارف المحلية، وسائق تاكســـي، كان مستقبلي مظلمًا، لكن كان هناك بعض الضوء، وفي إحدى المرات، قفز شـــخص لم أره من قبل إلى داخل التاكســـي الذي أقوده ثم أعطاني ورقة بها عنوان وأخبرني أنه ســـيأتي بنقود أجرة التاكسي من هناك، ظننته يكذب ولن يعطيني نقود أجرة التاكسي.

ولكن فـــي دقيقة، كانت هناك امرأة تصرخ ثـــم قفزت في إحدى الســـيارات وقال ذلك الشـــخص: "سوف أعطيك عشـــرين دولارًا إذا استطعت اللحاق بتلك السيارة التي قفزت بها تلك المرأة."

كان الأمر يبدو مريبًا فيما يخص هذا الرجل وتلك المرأة، وأنا لا أفهم ما يحدث، مرت السيارة بسرعة كبيرة، مطاردًا تلك السيارة في شوارع (آرلنجتون) وكأنني أقوم بتمثيل مشهد مطاردات في فيلم (بوليت).. مررت بجوار الســـيارة ورأيت المرأة في السيارة الأخرى خلف النافذة الخلفية وعلى وجهها علامات الذعر.

وقال الرجل الجالس في سيارتي: "اصدمها بالسيارة".. إنه يظن أنني من هؤلاء السائقين الذين لا يتورعون عن ارتكاب الجرائم.. توقفت بسيارتي في الحال وحصلت منه على عشرين دولارًا كما اتفقنا، وقذفت به خارج سيارتي الأجرة.

تعلمت من هذا العمل الكثير، ليس عملًا سهلًا بل شاقًّا للغاية ولا تستطيع أن تكون مثاليًّا، لكن لا بد أن تعمل العقل في تصرفاتك، ولم يكن لدي أي خطة لتوجيه مسار حياتي، التحقت بالجامعة في (ماشستيوستس) وذلك لإرضاء أبويّ المدرسين اللذين رغبا أن أحصل على التعليم الجامعي، فقمت بدراسة (علوم الحيوان) حيث أردت أن أصبح (بيطريًّا).. لكن في أحد الأيام الدراسية كان عليَّ أن أقوم بتشريح أحد الحيوانات، لم أستمتع بفعل هذا، لذلك تركت هذه الدراسة بعد الترم الأول.

فأنا قد رأيت حياتي، ضحية للاحتفالات الصاخبة، مواعدة الفتيات بكثرة، والقليل القليل من الاهتمام بالدراسة والعلم، لذا أصبحت سائق تاكسي، وفي إحدى المرات اصطحبت راكبًا من مطار (لوجان).. وكان يرتدي ملابس باهظة الثمن، سألته:

إلى أين أنت ذاهب؟

قال:

أحب المغامرة.

أجبته:

هذا ليس غريبًا على مدينة مثل بوسطن في السبعينات.

ما هي نوع المغامرة التي تحبها؟

قال:

أريد خمرًا ونساءً.

قلت:

هذا سهل.. يمكن أن أفعله.

قدت السيارة إلى إحدى المناطق المشهورة بتواجد عدد كبير من النساء في الشوارع ينتظرن الزبائن، من كل صنف ولون، كل ما تبحث عنه في الفتيات سوف تجده، وعندما وصلنا إلى تلك المنطقة، شاهدته في المرآة بعينين مفتوحتين للغاية قائلًا: "هذا جيد.. سوف أنزل هنا".. أعطاني الأجرة (خمسة دولارات) وزادني إكرامية، خمسة دولارات أخرى، وقد كان هذا مبلغًا كبيرًا، سألته وهو يغادر السيارة:

ما هي وظيفتك؟

وكانت هذه هي عادتي إذا ركب معي أحدهم ويبدو عليه آثار النعمة والمال الكثير، أسأله عن وظيفته، أجابني:

أعمل ضابطًا بحريًّا تجاريًّا.

سألته ثانية:

ما هذه الوظيفة؟

أجاب:

تنقل بضائع على ظهر السفن.

فقلت:

يبدو عملًا شائقًا.

وبينما هو يسير على رصيف الشارع يتفحص الفتيات.. ركضت خلفه وسألته بصوتٍ عالٍ:

كيف ألتحق بهذا العمل؟

كان يبدو أنه قادم من رحلةٍ طويلة، ربما ثلاثة شهور في البحر، وهو متعطش للحياة الصاخبة ولا يرغب في الحديث معي، فقال لي:

خذ هذه.

أعطاني بطاقة صغيرة عليها عنوان مدرسة للدراسة البحرية التجارية في (بالتيمور).. ثم سار بعيدًا، أرسلت خطابًا إلى المدرسة، لكن لم يأتني أي ردٍّ منهم، وقد تناسيت الأمر، إلى أن أتى أخي (مايكل) عائدًا من (بوسطن) وحضر حفل كنت ضيفًا به حيث كان يدرس في الأكاديمية البحرية في (ماسيتشوستس) في خليج (بازارد) وقال لي: "الأمر لا يبدو سيئًا" وأضاف وهو يحتسي الجعة: "إنهم لا يحلقون رأسك.. ليس مثل البحرية العسكرية".. لا يوجد هناك زي عسكري إلزامي.. وليس هناك أوامر كثيرة وعندما تحصل على العمل بعد التخرج، تمكث 6 شهور في إجازة كل عام.

كنت في ذلك الوقت أعمل في وظيفتين وأربح 220 دولارًا في الأسبوع، وكنت مستعدًّا للتغيير للأفضل، أحب (جاك كيرواك) وفكرة السفر حول العالم..

قام اثنان من جيراني هما؛ السيد (بولسون) والسيد (موراكو) بمساعدتي للقبول بالأكاديمية، وأيضًا مدرب كرة السلة في المدرسة الثانوية، كتب خطابًا يزكيني عندهم للقبول، وبعد عدة شهور تم قبولي بالأكاديمية البحرية، وكنت سعيدًا للغاية ولا أستطيع الانتظار للذهاب إلى هناك.

قدت سيارتي (فولكس فاجن) ميني باص.. إلى مكان إقامة الطلاب، التحقت بالدراسة مثل (جون بيلوش) بعد قضاء ليلةٍ طويلة في إحدى الاحتفالات، مكان إقامة الطلاب في الأكاديمية صغير للغاية، مكون من 6 حجرات، وسفينة للتدريب، وبعض الفصول الدراسية داخل مبنى، ثم المركز الإداري ومكتبة، وعندما رأيتها للمرة الأولى قلت أنها أكاديمية مناسبة تمامًا، والقائد الذي قابلنا بتحية كان في غاية الأدب، خاصة مع الآباء، حيث قال: "الآن إنك تنازلت عن ابنك، وعندما نعيده إليكما سيكون رجلًا حقيقيًّا" وعند مغادرة آخر سيارة للآباء، مكان اصطفاف السيارات، التفت الموجه إلينا وبدأ في الصراخ قائلًا: "لا مكان هنا للتدليل من جديد، فأنتم كنتم أطفالًا، يستطيع أي رجل أن يبصق عليكم، كما يبصق على الرصيف" وظل الموجه يصرخ بكلامه الفظ ثم أخذنا إلى مكان (الحلاق) حيث يتم حلاقة شعر الرأس

بالكامل، ثم أخذنا في الجري حول المكان قبل نهاية اليوم، مصحوبًا بصرخاته اللا مفهومة.

وبذلك تحولت الأكاديمية إلى قواتٍ بحرية تشبه القوات العسكرية، حيث يتم هدمك وإهانتك قبل بنائك مـــن جديد لتصبح رجل بحرية، وأرجعت كل ما حدث لي إلى أخي، فقد وضعني في المكان السليم...

مرت علينا سنة من الإزعاج والشقاء المستمر، كان هناك قائد اسمه (شـــاكي) حيث كان هو المســـؤول الأول عن الأكاديمية، لكن بعض المدرســـين هم من كانوا يديرون الأكاديمية، فكنا نســـير في إحدى الردهات الطويلة، فيقابلنا أحد المدرسين مصادفة، ثم يقوم بسؤالنا عن الدراســـة، ويتبعه بسؤال: "ما هي الخمســـة وعشرون شيئًا التي تتواجد في قارب الإنقاذ؟.. وعلينا أن نرتبهم أبجديًّا.. إذا فشـــلت في الإجابة، فعليك أن تقفز إلى الأرض وتقوم بعمل 25 حركة ضغط على الأرض، وفي رحلةٍ صيفية إلى (برمودا) يجعلونك ترتدي أربع طبقات من الملابس، منهم معطف شـــتوي، قفازات شتوية، قبعة، ونظارات للســـباحة، ثم يأخذوك إلى حجرة المحركات في سفينة التدريب، في فصل الصيف حيث تصل درجة الحرارة إلى 160 درجة فهرنهايت، أي 71 درجة مئوية، فتظل تعمل حتى تسقط على الأرض من شدة الحرارة والجفاف، وعليك أن تقوم بمص (مصاصة) بالكامل.. لا تســـألني عن الســـبب، وإذا حاولت الهروب من إحدى الحصص الدراسية، يقومون بقطع خرطوم إطفاء ويزجون به تحت باب غرفتك، ثم يفتحون المياه لتندفع بأقصى قوة، بعدها قل وداعًا لأجهزتك الشـــخصية وسماعات

الموســـيقى والكاميرا وأي شـــيءٍ آخر، يمكن أن يفســـد من المياه.. وإذا تعاملت بشـــكلٍ غير لائق مع من يحملون (شارة) الأربع خطوط، فيسمون هذا (حفل البطانية).. إذ سيأتون إليك وأنت نائم في السرير.. يلقون (بطانية) فوقك تغطيك بالكامل، وبعدها يأتي عشرة من الطلاب ويضربونك إلى أن توشك على مفارقة الحياة، أو يأتي الطلاب السابقون أيضًا ويدفعونك إلى مكانٍ يدعـــى (أربعة أركان).. فالجميع يعانون من الكوابيس بســـبب هذا المكان، يضعونك في هذا المكان وتنتظر، إلى أن يأتي أربعة منهم.. واحد يمثل (محرك بخار) والثاني (المضخة الرأسية) والثالث (عصا التحريك) والرابع (طاحونة البخار) وما عليك إلا أن تتحرك إلى كل ركنٍ حيث يضربك في أماكن متفرقة من الجسد ثم تنتقل إلى الركن الآخر، تظل هكذا مع حركة دائرية، لمدة ساعات.. إلى أن تشعر ويشاهدك الجميع، كم أنت أحمق!

إذا حدثت كل هذه الممارســـات في أيامنا هذه فستصبح إجراءات غير قانونية، لكن كل الإجراءات العقابية كانت لبناء الشخصية، وكان هذا يصب في مصلحتنا، فكان الطـــلاب الجدد يتعلمون الكثير بداية من كيفية ربط العقدة بالأحبال، كان هناك أحد الطلاب القدامى يقوم بتجربةٍ سخيفة معي، إذ قام بربطنا سويًّا، الخلف للخلف، وعلى كلٍّ منا أن يحاول التخلص من رباطه، وكان هذا صعبًا للغاية حيث كلٌّ منا كان يجذب الحبل تجاهه، وقد تفرغ هذا الطالب القديم ليحول حياتي إلى جحيمٍ وربما بعدها أترك الأكاديمية، وفي كل مرة يراني فيها في مبنى الإقامة، كان يحول حياتي إلى مأساة، فيتفوه بكلماتٍ بذيئة أو يحاول

إهانتي بشـــتى الطرق، وفي إحدى المرات، وحينما اقتربت الاحتفالات بأعياد الميلاد (كريسماس).. كنت أســـير مع بعض الزملاء من عنبر الطعام إلى أماكن النوم، وبالطبع كان هو هناك، ينتظرني قائلًا: "آه، فيلبس.. هل أنت ما زلت هنا؟" وبالطبع تسلل بعض أعوانه لمضايقتي معه، ثم قال: "لماذا لا تحزم أمتعتك وتستعد للرحيل من هنا؟" اشتد غضبي وهمست لنفســـي قائلًا: "أقسم بالله لن تستطيع إخراجي من هنا" ثم ابتسمت ابتســـامة مليئة بالحماس، وبالطبع لم يعجبه هذا، فصرخ قائلًا: "انـــزل إلى الأرض وقم بعمل 20 لعبة ضغط".. هززت رأســـي قائلًا: "الموضوع والرقم لا يحتاج إلى النزول للأرض" نظر إليَّ مذهولًا وقال: "ماذا قلت أيها الصغير؟ حســـنًا، أعطني 40 تمرين ضغط".. بدأت، وبعد مرور ســـاعتين، كنت أتصبـــب عرقًا بعد عمل تمرين الضغط والوقوف والجلوس، كنت متســـخًا متعرقًا، ولم أشعر بذراعي حيث أصبح مثل الحبل المرتخي، كان يراقبني والعرق يسيل على وجهي وهو مســـتمتع، وعاد بقية الأولاد إلى أماكن النوم، أخيرًا شعر بالجوع فأفصح أنه ذاهب لتناول العشاء، وقال وهو يسير: "أريد عند عودتي أن أراك هنا".. وإلا ســـيكون هناك عقاب لمدة أسبوعين، وهذا كان سيئًا للغاية.

وعند مغادرته، جاء أحد أصدقائه ركضًـــا من عنبر الطعام وكان يبدو عليه الأدب، وقال لـــي: "هذا يكفي يا فيلبس.. انتهت العقوبة".. نظرت حولي ثم سقطت على الأرض محاولًا عمل 20 مرة تمرين ضغط وأنا أقول: "لا.. شـــكرًا لك يا سيدي، أنا بخير" حيث كان وجهي قريبًا

من حذائه اللامع وأنا أؤدي تمارين الضغط على الأرض، شـــعرت أنني سأفقد وعيي، وكنت شـــديد الغضب لكن لم أرد أن يراني الجميع وأنا أنهـــار، أقوم بالعد حتى أنتهي من 20 تمرين ضغط، قال لي: "لا تكن عنيدًا يا فيلبس، توقف الآن عن التماريـــن، العقوبة ألغيت".. نهضت واقفًا أكاد ألتقط أنفاســـي، ثم نظرت إلى عينيه قائلًا: "أريد أن أسمع منه هو عن إيقاف العقوبة يا ســـيدي".. فقال: "إنه حقير ولن تسمع هذا منه مطلقًا".. فكرت للحظات وأنا أتنفس بصعوبة، فلم أكن أرغب لهذا الوغد أن يفوز، لكن زميلـــه الواقف أمامي الآن، ألغى العقوبة ولا بد أن ألتزم بكلامه بجانب أنني إذا قمت بعمل 20 تمرين ضغط آخر.. ربما أموت.. "شكرًا يا سيدي" وسرت مبتعدًا.

لم يكن كل فردٍ في الطلاب لديه التصميم القوي للنجاح والتخرج، لقد تخرج 180 فردًا من بين 350 طالبًا، ولم يكن أي فردٍ فيهم جبانًا، كنت قد أحببت الأكاديمية، أولًا لم يكن هناك فتيات وكان هذا هو نقطة ضعفي في السابق، وأيضًا في السابق كان هناك ما يلهيني دائمًا ويهدر وقتي، أما الآن فالأكاديمية مليئة بالأفراد، يعودون إلى خلفياتٍ وثقافاتٍ مختلفة، ولديهم صفات مشتركة تجمعهم.. فهم يريدون ويبحثون عن المغامرة، الحرية، العمل اليدوي، الاســـتقلالية، فقد كانوا في المجمل شبابًا لديهم روح الدعابة وخيال واسع يذهب بهم بعيدًا، ولقد تعلمت من الأكاديميـــة؛ الالتزام، وكم كنت محتاجًا أن أكون منضبطًا وملتزمًا في حياتي، كما تعلمت ألا أضيع وقتي في الأمور التافهة، وعندما يوكل إلينا أمرٌ ما لتنفيذه، فإننا نؤديه على أكمل وجه، لم يكن عملًا ســـهلًا

نؤديه، فكل مهمة نقوم بها لها قيمة عظيمة، فكل هذا يسمح ويتيح لك أن تكون في أمانٍ على السفينة وأن تصل إلى الميناء المراد الوصول إليه، فوق ظهر المركب ليس هناك شخص مرفه، فكل فرد لديه ما يقوم به وينهيه على الوجه الأكمل، وهذا ينعكس على جميع العاملين فوق ظهر المركب، في صيف 1976، حان دور الوقت الحاسم، حيث كان ذلك أثناء أول رحلةٍ تدريبية لي على ظهر السفينة، كانت السفينة في (بوسطن) حيث أكملت مائتي عام على إنشائها، وهي تعمل بكفاءة وكانت تستعد للإبحار، أنا وزملائي كنا على ظهر سفينة (باتريوت ستات) حيث هي سفينة التدريب، كنا نقوم بأعمال الطلاء أو تثبيت وربط الأحبال، والتجهيز لنوبات الخطر، كل هذا في الهواء الطلق المنعش في هذا الصيف، أحببت هذا العمل كثيرًا، كان عملًا جسديًّا يجعلك تذهب إلى سريرك آخر اليوم متعبًا، ولكنك تعلم أنك أنجزت كل المهام الموكلة إليك وليس هناك تفاهات.

كانت هذه أول مرة أشعر فيها أنني جزء من فريق العمل منذ المرحلة الثانوية لكن هذه المرة كان هناك شيءٌ مختلف، لم أشعر بحاجةٍ لأن أسير بأفكاري وحيدًا أو أنفذ ما أريده فقط كما كان يحدث في السابق، كانت طبيعة الحياة والتقاليد مختلفة حتى الحرية، كان لها مفهوم ومعنى مختلف، بدأت أستمع إلى قصص العاملين في البحرية التجارية أثناء وجودي في الأكاديمية، ماذا حدث أثناء حرب التحرير؟ حيث أن سفن البحارة التجاريين المدمرة قد تجاوزت ثلاثة أضعاف سفن البحرية الأمريكية.

وهذا في مدينةٍ واحدة مثل (ماستشوستس).. حيث اختفى آلاف البحارة أثناء محاربتهم للإنجليز، وكيف كان القراصنة يختطفون البحارة التجاريين ثم يبيعونهم إلى تجار العبيد الهمج.

وكيف كان القراصنة في القوافل الإسبانية يأسرون البحارة! يعصبون أعينهم ويغلقون عليهم الأبواب في السفن ثم يشعلون النيران في السفينة ويتركونها في البحر بلا هدف والنار مشتعلة فيها وبداخلها البحارة وطاقم العمل.. كيف نهضت أمريكا ثانيةً على أكتاف السفن الخشبية وهي تبحر إلى أبعد مكان في العالم من (كاديز) إلى (انتاركتيك) وهم يحملون جميع أنواع البضائع؛ حبوب الذرة، البارود للبنادق، ماء الذهب، الحرير الصيني إلى العبيد الأفارقة؟ وقد كان كالعادة البحارة التجاريون هم أول من وصلوا إلى تلك البلاد، إلى (جاف) و(سوماترا) و(فيجي).

فقد أشعلنا المسارات البحرية عبر المحيط وأصبحت مسارات معروفة، وقد تبع خطانا في تلك المسارات القوات البحرية الأمريكية، وهذا ما تعلمناه في الأكاديمية، لم نتعلم فقط التاريخ البحري، لكن الدارسين في المراحل النهائية كانوا يخرجون في رحلات على السفن التجارية ويعودون، وقد أصبحت جيوبهم منتفخة من كثرة الأموال، وكانوا يقصون علينا مغامراتهم في الرحلة عن النساء الجميلات في (فنزويلا) أو شجار في (طوكيو) أدى إلى تحطيم (البار) بالكامل.

وقد كان للقراصنة نصيب من هذه الحكايات، حيث هم بحارة جدد ويتبادلون أطراف الحديث عن بعض الطرق الملاحية الخطرة مثل

خطوط (ملاجا) حيث كانت مليئة بقطاع الطرق من (كولومبيا).. وقد جعل هـــؤلاء الطلاب من قصصهم كأنها إحدى قصص (روبرت لويس سيتفنسون) البوليسية..

كدت أن أموت كي أذهب معهم، وأعيش كل هذا بنفسي.

الفصل الثالث

قبل سبعة أيام

مضى اليوم الأول بعد مغادرتنا ميناء (صلالة) بشكلٍ جيد، وطبيعي السرعة التي نســـير بها جيدة، وحسب الخطة الموضوعة في الساحل الشـــرقي للخليج العربي متجهين إلى خليج عدن، وإلى الآن كل شيءٍ يبدو جيدًا وطبيعيًّا، وكم تمنيت أن نظل بهذا الهدوء وتلك الكفاءة..

راجعت مع طاقم العمل كل الخطوات والإجراءات المتبعة إذا حدث وتعرضنا لمحاولة قرصنة في المحيط في اجتماع الليلة السابقة.. حيث قرأ الجميع تلك التعليمات وتدربنا علـــى البعض منها، ولكن كل هذا مجرد تعليمات علـــى الورق للتذكر فقط، كنت أود أن أرى رد فعلهم، وكيف يتصرفون إزاء أي تحديدٍ عمليٍّ وواقعيٍّ وفعلي.

مدة الإبحـــار من صلالة إلى جيبوتي حوالـــي ثلاثة أو أربعة أيام في البحر، لكن بعد انتهـــاء اليوم الأول، كان الجميع متعبًا، حيث كان على الجميـــع أن يطمئن على عمل كل جهازٍ ومحرك حتى على إحكام

ربط المسامير والمعدات، لذلك يحب الجميع أول يومٍ في البحر، لأنك تطمئن على كل شـــيءٍ فتضمن رحلة بلا مشـــاكل تقنية، لكن الشيء الصعب، أن درجة اطمئنانك وراحتك تجعلك تغفل عن النواحي الأمنية، وأنا من ناحيتي لـــم أود أن أفتح موضوع الاهتمام بالأمور الأمنية قبل أن نصل إلى المحيط في المياه العميقة، فنحن نتجه إلى أخطر مناطق البحر في العالم، وكنت أحاول أن تكون السفينة جاهزة ومستعدة من الناحية الأمنية.

في صباح يوم 2 أبريل، صعدت إلى منطقة القيادة وأحضرت كوبًا من القهوة، وكان جهاز الرادار خالي من أي قطعٍ بحرية حولنا، نظرت إلى المساعد (شين) والذي كان متواجدًا في قمرة القيادة منذ الرابعة صباحًا، وراجعنا سويًّا خطة عمل ذلك اليوم، وما هي الساعات الزائدة التي نحتاجها للعمل.

وما يقوم بعمله الآن، وبشـــكلٍ سريع تطورت المناقشة إلى مجرد دردشة عن الرياضة وأي أخبارٍ عالمية أخرى.

وأتذكر قبل الرحلـــة أنني تحدثت مع (شـــين) عن بعض المهام الموكلة إليه حيث هو يســـتعد أن يصبح قبطانًـــا، لذلك عليه التدريب الكثير، وأنا قررت أن أساعده وأعطيه الفرصة وأوكل إليه أعمالًا تخص القيادة، بعد أن أنهينا حديثنا بدقائق قلت لـــ (شين): "اليوم سوف نتدرب على نوبة الخطر، وكيف نواجه أي أخطار."

والمساعد (شـــين) هو أكثر شخص يعمل على هذه السفينة، حيث يتفقد كل مكان لمدة 14 ســـاعة في اليوم، طوال أيام الأسبوع، وعمل نوبة الخطر هذه هو من الأعمال الإضافية فوق أعماله اليومية.

أغلب المســـاعدين ربما يظهرون بعض التذمر والضجر والشكوى من كثرة الأعمال (هل لا بد من القيام بذلك؟) لكن (شين) كان مختلفًا حيث قال:

- رائع، أحب التدرب على نوبة الخطر، فإنها كصوت الموســـيقى في أذني" فقلت له: "إذًا تناول إفطارك وسوف نقوم بزعق نفير الخطر في التاسعة صباحًا، اترك أي عملٍ لديك جانبًا إلى أن ننتهي من تدريب نوبة الخطر هذه.

قال:

نحن جاهزون.. دعنا....

قاطعته قائلًا:

لا تحاول أن تخمن ما ســـنقوم به، فقط شاهد وشارك فيما سنقوم به.

بعد مرور الساعة التاســـعة بدقيقتين، صعدت إلى مركز القيادة والمســـاعد الثالث (توليد رايت).. كان هناك مع أحد البحارة، توجهت إليه قائلًا: "هناك مركب تبحر ناحيتنا، من ناحية ســـتاربورد، عددهم أربعة رجال، مسلحين ببنادق، يبدو عليهم العداء".. كان هذا جزء من بدء التدريب على نوبة الخطر، نظر إليَّ قائلًا: "حسنًا".. انتظرت منه

أي رد فعل حيث كان ينظر لي وحسب، فقلت: "علينا أن نفعل شيئًا" قال: "كولين، حســـنًا" ثم قام بضرب الجرس العام والذي كان يصدر صوتًا عاليًا في جميع أنحاء السفينة.. "لا، في البداية لا نضرب الجرس العام" قلت شارحًا له: "فهذا سوف ينبه القراصنة أننا مستعدون لهم ونحاول الدفاع عن أنفسنا لأن الجرس العام يمكن أن يسمع على مسافة خمسة أميال خارج السفينة"

قام (كولين) بضرب الجرس الأضعف صوتًا، شاهدت الطاقم وهم يتحركون وكل واحدٍ منهم كان عليه فعل شـــيءٍ محدد، نصف هؤلاء الرجال كانوا يركضون في الاتجاه الخطأ، هذا سيئ للغاية.

ناديت: "شغلوا المضخات" قال (كولين): "حسنًا"

حيث يوجد على السفينة مثل (ميرسك الاباما) حوالي 35 خرطوم حريق مثبتًا علـــى منصة نطلق عليها (محطة حريق).. ولكن خراطيم مكافحة القراصنة كان عددهم 5 خراطيـــم لمحاولة ضخ مياهٍ قوية على القراصنة وإبعادهم ثلاثة خراطيم على الجوانب واثنان في خلفية السفينة.

وجميع هذه المضخات ومحطات الحريق، جاهزة للعمل وموجهة، ما عليك إلا أن تدير مفتاح التشـــغيل من قمرة القيادة لتنطلق المياه بقوة، وتقاوم صعود القراصنة من على ســـلم مثبت بجانب السفينة، فتســـقطهم أو تعيق حركتهم، ووجود هذه الخراطيم يعطي انطباعًا للدخلاء والقراصنة أننا جاهزون لهم.

عندما قام (كولين) بالضغط على زر تشغيل الخراطيم، لم تنطلق المياه ولم يحدث شـــيء، وفي نفس الوقت كان هنـــاك أحد البحارة بالقرب من مركز القيـــادة، لا يدري ماذا يحدث وكأنه ليس واحدًا من طاقم العمل أو كأنه يبحث عن كلبٍ تائه.

فقلت له: "نحـــن تحت حصار القراصنة.. ماذا يجب عليك فعله؟" نظر إلـــيَّ وتكلم متعلثمًا: "أنا.... أنـــا.... المفروض.... أن" .. "عليك أن تقوم أولًا بإعطاء إشـــارة وطلقات تحذير في الهواء، أننا نتعرض لهجـــومٍ كي ترانا أي قطعٍ بحرية أخرى وتأتي للمســـاعدة، وهذه لها إشـــارة معينة، وإذا استخدمت إشارة مغايرة، سوف يفهم منها معنى آخر".. ثم أمرته أن يضغط على زر تشغيل المضخات كي تعمل، ضغط عليها إلى أن انتقلت من أحمر إلى أخضر ثم سار بعيدًا، استدعيته ثانية قائـــلًا: "لا تغادر الزر إلا عندما تتأكد من انطـــلاق المياه بالفعل من الخراطيم" قال: "فهمت."

أردت أن أجيب "لا... إنك لا تفهم شيئًا" وبعدها أرسلت أحد البحارة لإغلاق الثلاثة أبواب المحاطة بمركـــز القيادة، إذا نجح القراصنة في الصعود إلى الســـفينة فجميع المداخل يجب أن تكون مغلقة.. حجرة الماكينات، مركز القيادة، يجب أن تكون أيضًا مغلقة... فعليك أن تمنع القراصنة من محاولة السيطرة على السفينة، لأنهم إذا نجحوا في ذلك، فسوف يبحرون بها إلى الساحل الصومالي، حيث لا يوجد هناك أي أمن لحمايتنا، ويأخذوننا إلى أماكن مجهولة ومؤمنة وبعدها يستطيعون أن يبيعوننا بأعلى سعر لمن يدفع أكثر مثل منظمة تنظيم القاعدة.

كان هذا هو أكثر ما يخيفني، وكنت أعلم أن أحدث هزة لدى الطاقم أن ينتهي بنا المطاف في حفرةٍ قذرة، وأعيننا معصوبة ومقيدين بأحد الأعمدة مثل الحيوانات، ونحن تحت رحمة جماعةٍ عسكرية متطرفة، أسوأ تخيل يمكن أن تتخيله، فكان كل واحدٍ فينا يخشى أن يصبح مثل (دانيال بيرل).

البحارة تحركوا في كل اتجاه، وقام (كولين) بالفعل الصحيح، وهو أن حول موجة الراديو إلى في – اتش – أف.. أضاء الأنوار وأطلق المياه من الخراطيم ثم قام بالتمثيل عن كيفية الحوار والمناورة، سألتهم: "ما هي كلمة السر؟ والتي تسمح لأي فردٍ دخول أي بابٍ مغلق، والذي يطمئن بها زميله من الناحية الأخرى من الباب، إنه بمفرده ولا يوجد مسدس مصوب إلى رأسه" قال (مستر جونز) كلمة السر، فقلت له: "خطأ.. أنت بعيد تمامًا عن كلمة السر الصحيحة، هي (سوبر تايم) أي (وقت العشاء)."

عاد البحار الذي كان موكل إليه غلق الأبواب حول منطقة مركز القيادة والتي من المفترض أن تأخذ حتى 20 ثانية ليؤدي تلك المهمة، لكنه غاب لمدة خمس دقائق، سألته رغم معرفتي بالإجابة:

– أين كنت؟

– ذهبت لأغلق الأبواب.

– أي أبواب قمت بإغلاقها؟

– كل بابٍ في كل دور.

– هل لديك أقفال لكل هذه الأبواب؟

– لا..

السبب الرئيسي لغلق تلك الأبواب الثلاثة؛ هو عزل سطح المركب عن مركز القيادة، لذا لا يستطيع المقتحمون الدخول إلى منطقة مركز القيادة، وبالتالي يكون مكان القيادة في مأمن ويستطيع من يعمل به التصرف وطلب استغاثة، واختفاء جميع الأشياء العامة في أماكن يصعب على المقتحم الوصول إليها، فالأبواب المفتوحة لا توفر حماية لباقي أماكن السفينة.

ثم أضفت قائلًا له:

إذًا، أنت أغلقت الأبواب فقط ولكن بدون أقفال؟

نعم، أعترف، لقد أغلقتها فقط.

هذا لا يكفي، ولن يساعدنا في شيء، أليس كذلك؟

نعم.. أعتقد أنه لن يساعدنا.

كان (كولين) يستمع لهذا الحوار الدائر بيني وبين البحار، وقد هز رأسه قائلًا: "لقد راجعت معه كل تلك الإجراءات حوالي ست أو سبع مرات.

"نحن نبحث عن الإجادة ولكن مضطرين بقبول القليل" هكذا أجبت.. ضحك باقي الطاقم حيث كانوا يعرفون أنني سوف أعقب بهذا القول.

انتهى التدريب على نوبة الخطـــر، وقمت بالاجتماع بجميع طاقم الســـفينة عدا المســـاعد الثالث.. وتناقشـــنا فيما قمنا به من تدريب والأخطاء التي حدثت وما كان جيدًا، لم تكن تجربة ناجحة للغاية، فأنا لا أريـــد إعطاء الانطباع أن من فوق ظهر هذه الســـفينة مجموعة من الحمقى.

فجميع هؤلاء البحارة، بحارة جيدون ولديهم خبرة، لكن كل قبطان له طريقته في كيفية تسيير الأمور، وأن عليه أن يلقن مساعديه، كيف يجب أن تســـير الأمور، فنوبة الخطر الأولى هذه، مجرد تدريب أولي ولا بد أن تحدث أخطاء، وأنا على يقينٍ أن في المرات القادمة ســـوف تتحســـن كل الأمور، وفي هذه الأثناء، اقترح (مايك) كبير المهندسين، أن نجعل هناك خزينة مخبأة خلف مكان قيادة الســـفينة، فإذا حدث هجوم من قراصنة فسوف يذهب كبير المهندسين مباشرة إلى حجرة المحـــركات، والضابط الأول والثالث يذهبـــان إلى حجرةٍ خلف مركز القيادة وباقي الطاقم يذهبون إلى حجرة المكتب، وإذا تمكن القراصنة من كســـر الباب المؤدي إلى حجرة المكتب، فعليهم الاختباء في مكانٍ آخر، وأنا أقترح في الحجرة خلف مركز القيادة، فهي متفرعة من ممرٍّ ضيق للغاية ومن الصعب على القراصنة إيجادها..

قلت: "هذه نقطة واقتراح جيد، تعالوا نتفقد الأماكن" .. فقام أحد البحارة وســـأل: "وماذا إذا كانوا يســـتمعون إلى جهاز الراديو الذي نستخدمه؟"

"هذه نقطة جيدة، لذا لا يجب أن نذكر أسماء الأماكن، فإذا سمعت صوت المســـاعد الأول، أعرف على الفور أنه على السطح، وإذا سمعت المساعد الثاني، أعرف أنه في مركز القيادة، وأن المهندسين في حجرة المحركات، أما الباقي فمن المفترض أن يكونوا في الحجرة الآمنة والتي خلف مركز القيادة.. هل فهمتم هذا؟".. أومأ الرجال.

"ماذا أيضًا علينا فعله إذا تعرضنا لهجومٍ من قراصنة؟" ســـألتُ.. قال أحدهم: "لدينا قطع معدنية ضخمة ولدينا مشـــاعل.. فيمكن أن نقذف بتلك العصي المعدنية على القراصنة ربما نصيب رؤوسهم لكنها صعبة القذف، لدينا حوالي عشر قطع منهم بجوار مركز القيادة."

"حسنًا، الآن كل فردٍ فينا على درايةٍ بما يجب عمله؟"

أومأ الجميع بهز رؤوسهم.

عندما نقوم بجمع البحارة للتدريب على نوبة الخطر.. عادةً يخرج أحدهم ليعترض ويبدي رأيًا مخالفًا، حيث قال هذا الرجل ذو الســـتين عامًا ويزن ثلاثمائة رطل ويلتقط نفسه بالكاد، وفي وقت العشاء يكون هو الأول في الطابور: "كابتن... لا بد أن يتسلح بأسلحة" "أنا أريد أن أقاتل هؤلاء القراصنة" هذا الرجل لا يستطيع الركض أو صعود السلم والآن يريد أن يقاتل ضد تلك العصابات، فبمجرد أن يروه يلقون به من فوق سطح المركب..

قلت له: "اســـمع، أنت لا تستطيع أن تســـتعمل سكينًا في مقابلة من يحمل بندقيـــة، الدخول في معركةٍ أمر وارد، لكننا يجب أن نواجه

بطريقةٍ أخرى، لذا علينا فقط تجهيز خراطيم المياه والمشاعل، وبعدها نؤمن أنفسنا، هل فهمت؟

وللمرة الثالثة أومأ الجميع برؤوسهم.

– وإذا وجدنا أنهم يحملون فقط السكين، لذا يمكن أن نستعمل العصي المعدنية وإغلاق البوابات، علينا أن نقرر إذا نجح القراصنة في الصعود للسفينة، فلا يخرج أحدكم ومعه مفاتيح الأقفال، فإذا قبض على أحدكم بالمفاتيح فمعنى هذا أنهم يستطيعون فتح جميع الأبواب، وأيضًا على كل بحارٍ حين يفتح أي بابٍ للتحرك أن يغلق خلفه بإحكام"

– حسنًا، أنا أعلم أن كل هذه الإجراءات، أمر غير محبب، لكننا ربما ننجو بسبب تلك الإجراءات الأمنية، في المرة القادمة إذا تدربنا على نوبة الخطر، علينا أن نقدم أفضل ما لدينا."

بعدها عاد كل فردٍ إلى عمله، فإجراءات نوبة الخطر أخذت من وقتنا حوالي 15 دقيقة، والمفروض ألا تزيد عن 30 دقيقة.

ربما قام قبطان آخر غيري أثناء التدريب وارتكاب بعض الأخطاء، بتوبيخ ومعاقبة كل من لم يؤدِ مهمته بنجاح، لكن عبر السنين تعلمت طرقًا مختلفة للقيادة، لم أشأ أن أكون فقط آمرًا ذو صوتٍ عالٍ، مثلما كان أبي يفعل، أو بعض القباطين مع طاقم عملهم، فكنت دائمًا أكره هذه الطريقة، الصراخ في وجه المخطئ، فأنا لا أريد أن يكرهني

الجميع هنا، ولا أبحث عن المثالية خاصة أن هناك بعض الأفراد ليسوا مثاليين.

"علينا أن نتعلم كيف نحبو، قبل أن نتعلم كيف نمشي، وبعدها يمكن أن نفكر بالركض."

هذه المقولة أعادتني إلى بداياتي مع البحرية التجارية، أول رحلة لي بعد أن حصلت على الرخصة، فعندما تخرجت من الأكاديمية، كنت حاصلًا على رخصة مساعدٍ ثالث، حيث أعمل في مكتبٍ أسفل سلم القيادة في السفينة وكان عليَّ أن أنتظر الأوامر وميعاد بدء الرحلة، لذا عدت إلى منزلي وعملت كعامل طلاءٍ لحين أن أتلقى الأوامر بالذهاب إلى الميناء، كنت مدعوًّا عند صديقةٍ لي لتناول الغداء حول حمام السباحة، وكان هناك مدعو يعمل لدى إحدى شركات الشحن، قال لي:

هناك سفينة تابعة لشركة الشحن يبحثون عن مساعدٍ ثالث.

سألته:

إلى أين الرحلة؟

قال:

ألاسكا.

هم م م... ألاسكا.. مكان مختلف وجذاب.

بعدها بثلاث ساعات، كنت في الطائرة إلى (سياتي). وبعد قضاء نصف يوم في الطيران.. ذهبت إلى الميناء مستقلًّا تاكسي، توقف السائق أمام كومة من الخردة عائمة على المياه، فقلت للسائق:

أنت أخذتني للمكان الخطأ، أنا أعمل على ســـفينة. نظر إليَّ كأنني بطيء الفهم أو غبي ثم قال:

أنت المساعد الثالث، وهذه هي سفينتك.

عندما صعدت إلى تلك السفينة، المساعد الثاني قال لي:

– لن تســـتطيع أن تبحر على ظهر سفينة مثل هذه. كان على حق، كانت السفينة تســـمى (ذا اليون برفايدر) ما معناه (مانحة التفوق).. سوف تبحر من ميناء (سياتل) إلى (ألاسكا).. والعودة.

فكان مخطط لنا الإبحار عبر طرقٍ ملاحيةٍ داخلية.. من (تشارلوت تاون) ثم إلى (كودياك) إلى (إلوشيان ايلاند) ثم شمالًا إلى (بريبيلون ايلاند) فـــي دائرة (اركتيك).. ثم عز على بعـــض القرى القائمة على الصيد وتعليب سمك (السلمون والكابوريا) التي يصطادها الصيادون، وكنا نمد القرى الهندية ببعض المستلزمات حسب اتفاقية مع الحكومة الأمريكية، لذا كانت الســـفينة مليئة بكل أنـــواع البضائع التي يمكن تخيلها؛ جلود مدبوغة ومختومة في منطقة البضائع، أسماك السلمون في الثلاجات، وبعض أكوام منها على السطح، وحاويات للجعة جاهزة لإعادة ملئها في (سياتل) دراجات نارية، أعمدة تليفون، زلاجات للجليد، وطفايات حريق، كل هذه الأغراض موجودة على السفينة.

فهي سفينة تبحر إلى اللا معروف، إلى المجهول.. وكنت أنا المساعد الثالـــث في أول رحلة عملٍ لي، ونادرًا ما كنـــت أتحدث إلى القبطان، هكذا كنت بعيدًا تمامًا عن قيادة السفينة، حجرتي كانت صغيرة للغاية

وبها باب خشـــبي والذي تحطم فيما بعد إثر عاصفة ثلجية واستبدلته بـــ (بطانية) من الصوت على باب الحجرة، والتي كانت هي الحماية الوحيدة لي من الرياح شديدة البرودة، كنت أستيقظ في الصباح لأجد مياهًا طافية تحت قدميّ، وكنت أتساءل: "ماذا فعلت بنفسي؟"

وفي الأسبوع الثالث لي في البحر، كانت هناك مشكلة، حيث وضعنا أنا والمســـاعد الثاني في مخالفةٍ صغيرة، أننا لـــم نقم بعمل تقريرٍ لحالة المد والجزر للوصول للميناء القـــادم، لقد قمنا بكتابة التقرير بالفعل لكن مساعد الكابتن الأول أعطى أوامر خطأ، ظنًّا منه أن ورقة التقريـــر ما هي إلا ورقة (خردة) لا قيمة لهـــا ولم يعتد بها، ثم ذهب إلى القبطان كي يشكونا إليه، لكن القبطان رفض الاستماع إليه، لذلك قرر المساعد الأول الاســـتقالة وترك العمل، ثم استقال أيضًا المساعد الثاني تضامنًا مع المساعد الأول، ومعه زوجته التي كانت تعمل نادلة في مطعم الســـفينة، وتركت العمل هي الأخرى خلف زوجها المساعد الثاني، رئيس البحارة اســـتقال وترك العمـــل هو الآخر، ومعه بعض البحارة الأقوياء.. كل الأفراد اســـتقالوا وتركوا السفينة، فجأة وجدت نفســـي المساعد الأول في سفينةٍ متجهة إلى (الدائرة الاركترية) وكان لدينا عجز كبير في طاقم العمل، لذا قمنا بتعيين زوج من صغار السن من الشباب، واحد في الرابعة عشـــرة من العمر والآخر في السادسة عشرة، يعملان كبحارين، لم يهتم القبطان بذلك كثيرًا؛ كل ما كان يهتم به أن يكون كل فردٍ على الســـفينة واعيًا لما يقوم به، كان معروف عن

القبطان كثرة شرب الخمر بينما محظور على طاقم العمل شرب الخمر أو أخذ خمر من مخازن السفينة.

وكان أحيانًا بعض الطاقم يتناولون نوعًا قويًّا من الخمر والذي يجعل شاربه كالمجنون، لذا كان القبطان يخرج من حجرته صارخًا: "يا فيلبس، هل يشرب هؤلاء الشباب؟.. أنا أشتم رائحة الخمر على السفينة" فأجيبه قائلًا: "سوف أراقبهم يا كابتن".. وفي أوقاتٍ كثيرة كنت أبادلهم شرب الخمر في بعض الليالي.

نجحت في إقناع الجميع بالعودة إلى السفينة.. ولكن بعد أسبوعين دخلنا إلى مضيق البلقان، ألاسكا، والتي كانت فيها زريعة سمكية في موسم التزاوج وحول الميناء هناك 6 أو 7 منازل و(بار) صغير...

أمر القبطان بمضاعفة العمل وزاد أعباء العمل على الجميع، مما أحدث تذمرًا من الجميع، وعندما غادر جميع أفراد الطاقم السفينة للمرة الثانية، الجميع توجه إلى الحانة، وعند دخولنا الحانة، سألنا عامل البار:

- هل رأى أحدكم أي دب؟

- لا.. لماذا؟

- رجلان كانا يعملان بإحدى السفن، قاما بالتجول في المكان وأكلهما دب.

لذا لم أقم فقط بإقناع جميع الرجال بالعودة إلى السفينة وحسب، بل كنت أرقب سطح السفينة بشكلٍ دائم علني أجد أي دبٍّ أسود، ومضى الليل بسلامٍ دون أي خطر من الدببة.

كان الكابتن يقف بمركز القيادة عندما أقنعت الطاقم بالعودة إلى السفينة، قلت له: "أقنعتهم بالعودة إلى السفينة، أيها الكابتن."

نظر فقط إلينا وذهب كل فردٍ منهم إلى مكان نومه.. وفي صباح اليوم التالي، تناولنا طعام الإفطار، وبدأ كل فردٍ عمله، لم يقل أحد كلمة، وهذه أشياء نتعلمها في البحرية التجارية، وكانت الرحلة بها أيضًا لحظات ممتعة، فالمنظر من على سطح السفينة رائع وكنا نشاهد ما يوجد على البر، فنرى الغزال الأمريكي، الدببة والثعالب والدلافين تخترق المياه بالقرب من السفينة، يمكن على بعد 20 ياردة ثم يستمرون بالسباحة بجوارنا لأميالٍ طويلة.

قمنا أيضًا بإنقاذ شخصين؛ صياد وابنه، كانا يبحران في قاربٍ صغير بالمجاديف وسط خليج ألاسكا، وقد اشتعل مركبهما بالنيران، وكان الطقس باردًا للغاية، فأوشكا على الموت، تم إنقاذهم، وكان البرد قد تملك منهم للغاية، فلم يستطيعا الكلام لمدة ساعات، فقط يرتعشان.

وبعد فترةٍ من الرحلة، شاهدت جزيرة مليئة بالأشجار تكسوها الثلوج، وكانت هذه الجزيرة وسط المياه ولم تكن موجودة على الخرائط، وعندما أشرقت وسطعت الشمس، بدأ الثلج في قاع الجزيرة في الذوبان ببطءٍ وبعدها شيئًا فشيئًا، اختفت الجزيرة واتضح لي

أنها ظاهرة معروفة تدعى (الانكسار العظيم).. حيث نجد في خطوط العـــرض العليا، حدوث هذه الظاهرة، وقليل من الناس يســـتطيع أن يشاهد هذا المشهد، وقد بدأت في هذه الرحلة، أتعلم كيف أصبح قائدًا للسفينة.

الدرس الأول: كيف تحادث زملاءك في العمل؟ وأيضًا تعلمت أنه في البحر ليس كل شيءٍ يسير كما تهوى وتحب، فيجب أن تكون مستعدًّا لكل الاحتمالات، بداية من التمرد، إلـــى الدببة الجائعة.. إلى الظواهر البصرية في البحار.

ويجب عليك أن ترتجل وتكون مبتكرًا، فالقبطان الثابت على شيءٍ واحد، سريعًا ما يفقد الثقة بينه وبين الطاقم الذي يعمل معه.

كانت هذه ذكريات وخواطر جالت بخاطري حين أتى ذكر الساحل الصومالي، وأننا لا بد وأن ننجو إذا حدث أي هجوم.

في اليوم التالي بزغ فجر يومٍ مشمس وساخن، قام مكتب مخابرات البحرية الدولية في (ماريلاند) بإرسال بريدٍ إلكتروني (إيميل) يتضمن تقريرًا عن المخاطر المحيطة بالسفن على مستوى العالم.

قمت بفتح البريد بســـرعة، قرأت عن هجـــوم قراصنة ومخاطر أخرى تخص أي منطقةٍ في شمال الأطلنطي، البحر المتوسط، وبقية الأطلنطي، فلم يتم تسجيل أي حادثةٍ في تلك المناطق، نزلت ببصري عبـــر التقرير إلى أن وصلت إلى منطقة شـــرق أفريقيا، وجدت هناك 39 تقريرًا عن أكثر من هجومٍ في أسبوعٍ واحد، حبست أنفاسي أثناء

قراءتي للتفاصيل، وقد تضمن التقرير تحذيرات ونصائح بالابتعاد عن منطقة شرق أفريقيا.

تجولت ببصري خلال 10 حوادث تم رصدها وصدر بها هذا البيان:

كشـــفت قطعة بحرية عن اقتراب مهاجمين فـــي يوم 20 مارس 2009 الساعة السادسة صباحًا، وهي في طريقها إلى باب المندب.

زورق سريع به خمسة رجال مســـلحين، اقترب من قطعةٍ بحرية وهي متجهة إلى باب المندب.

حاوية تحمل مواد كيميائية، أبلغت عن محاولة صعود قراصنة في 29 مارس 2009 في خليج عدن.

ناقلة بتـــرول تابعة للبحرية الألمانية، تعرضت لإطلاق النيران يوم 29 مارس 2009، ســـبعة قراصنة في زورق، أطلقـــوا النيران على القطعة البحرية، ظانين أنها سفينة بحرية تجارية في خليج عدن.

تعرضت سفينة لإطلاق النار وهجوم من زورق به 7 رجال مسلحين في خليج عدن.

ناقلة مواد سائلة (تاتيان/ تم اختطافها يوم 19 مارس 2009 وتم الهجوم عليها من قبل 6 رجال في زورق ســـريع ومســـلحون ببنادق ومسدسات تمكنوا من السفينة واختطفوها في خليج عدن.

ســـفينة بضائع (دايموند فالكون) تم إطلاق النار عليها من قبل زورقين محملين بالرجال والأسلحة يوم 14 مارس 2009.

سجلت سفينة محاولة اختطافٍ يوم 1 يناير 2009 في الساعة 5.30 عصرًا في خليج عدن.

تم إطلاق النيران على ناقلة موادٍ سائلة يوم 30 مارس 2009 حيث اقترب زورق سريع، في المحيط الهندي.

سفينة حاويات أبلغت عن محاولة اقترابٍ مريبة في 28 مارس 2009 في تنزانيا.

أصبح القراصنة يهاجمون ويتحرشون بكل أنواع السفن التي تبحر في منطقة القرن الإفريقي سواء كانت ناقلات نفط أو أساطيل صيد حتى العبارات الفخمة لم تسلم منهم، لم يعد هناك أمان في هذه المنطقة، فكان هناك الكثير من السفن تسير بسرعة عالية لتفادي الهجوم عليها في شرق أفريقيا، فلك أن تحلم وتتمنى ألا تكون واحدة من هذه السفن المتعرضة للهجوم.

فعندما تشاهد أيًّا من هذه الزوارق السريعة التي تحمل قراصنة على شاشات الرادار، فلديك طريق وحلول محدودة للغاية لتفادي أي هجوم.

ومنها، زيادة السرعة إلى القصوى، خراطيم المياه، ذلك بجانب الخداع، هذه هي الوسائل المتاحة لديك.. فالصوماليون يحملون بنادق آلية، زوارق سريعة، صواريخ محمولة، ودعاية قوية عن قدراتهم، وهذا أشبه بأسدٍ وقطيعٍ من الحيوانات في غابات أفريقيا، فكم تتمنى أن يكون العدد الكبير من الحيوانات في القطيع قادرًا على توفير الحماية

لكل حيوان من الأسلحة، فالأسد عادةً يبحث عن الضعيف، والبطيء.. الغير قادر على الركض، صغير السن بدون خبرات في الدفاع عن نفسه.

كذلك القراصنة يبحثون عن القطع التي ليس لديها وسائل دفاعية، ولكن يبدو أن القطع الأمريكية بعيدة المنال عن القراصنة، حيث كانت آخر مرة تم قرصنة واستهداف وأسر طاقم سفينة أمريكية، منذ حوالي 200 سنة خلال العصر البربري، حيث كان هناك قطاع طرق من المسلحين في منطقة شمال أفريقيا، حيث كانوا يديرون عمليات القرصنة من ميناء طرابلس وميناء الجزائر في الجزء الآخر من القارة.

في تلك الأيام أزمة القرصنة كانت على رأس أولويات (توماس جيفرسون) في عام 1801.. أنفقت الولايات المتحدة حوالي 20 % من ميزانيتها لدفع الفدية للقراصنة الأفارقة، وانتشرت في هذه الأثناء خدمة أطقم السفن المقبوض عليهم للأغنياء في بيوتهم ومعاملتهم كعبيد لدى سادة القراصنة، وقد خاضت الولايات المتحدة اثنين من الحروب مع البربر، وقد أضاف قواد البحرية الأمريكية سطرًا آخر في نشيدهم الوطني (إلى شواطئ طرابلس) كان هذا منذ فترةٍ زمنيةٍ طويلة، وقد تم محو أعمال القرصنة هذه من الذاكرة الوطنية.

لم تتعرض القطع البحرية الأمريكية لأي أعمال قرصنة منذ قرنين من الزمان، وبعد مرور يومين على الإبحار، أشعر أن طاقم السفينة مستعدون لأي هجوم، من الممكن أن تتحسن الأمور، فالبداية تبدو جيدة، لكنني لم أكن أعلم أن الرجال الذين أرادوا اختبارنا وقوة تحملنا.. يبحرون حولنا.

الفصل الرابع

قبل 6 أيام

لـــم يحدث لي مطلقًا أن تعرضنا لمحاولـــة قرصنة طوال تاريخي المهني، لكن الأمر يبدو قريبًا، فـــي إحدى الرحلات خلال خليج عدن، في سبتمبر الماضي، كنت أقف في منطقة مركز قيادة السفينة عندما جذبني المساعد الأول (شين) من يدي وأخذني جانبًا ثم قال: "كابتن.. لقد ذكرت لك أمر هذه السفينة التي مررنا بالقرب منها منذ وقتٍ قليل"..

أومأت له برأســـي، فقد جرت العادة من خـــلال الرحلات البحرية الكثيرة، أنه من الممكن أن تمر بجوار ســـفن معينة في أكثر من مرة أو مرات وربما ترسو معهم في نفس الميناء، ويظهر اسم هذه السفن على أجهزة التعرف الأوتوماتيكية.

ولقد مررنا في الليلة السابقة بناقلة نفط، واستمع (شين) إلى اسم السفينة يذكر من خلال أجهزة الراديو.. وبعد ست ساعات تم اقتحام تلك الناقلة من قبل قراصنة.

سألت (شين):

- أين؟

أجاب:

أمام وشمال الحدود الكينية الصومالية.

إنهـــا مجرد ضربة حظ حيث اتجه القراصنة إلى الشـــمال للبحث عن أي ســـفن، ووجدوا تلك الناقلة واختطفوها، بدلًا من الاتجاه جنوبًا ومهاجمتنا.

هذا مثل الطقس تمامًا، فعادة المحيـــط الهندي هادئ دائمًا مثل الســـطح الزجاجي، وبلونٍ أزرق رائع، وعادةً يسمون البحارة (المياه الجميلة) لكن من نهاية يونيو إلى بداية سبتمبر، حيث فصل الخريف يأتـــي برياحٍ غربية جنوبية، برياحٍ عنيفة تشـــكل خطورة بالغة على الســـفن الصغيرة، وهذا يعني أن القراصنة ينتشـــرون ما بين شهر أكتوبر إلى شهر مايو، ومع شهر أبريل يكثف القراصنة من هجومهم لعمل الكثير من الأموال وجني الأرباح قبل فترة التوقف.

حسب معلوماتي فإن معظم القراصنة يأتون من المنطقة الشمالية الشرقية للصومال والمعروفة باسم (بونتسلاند) والمأخوذ اسمها من الأرض الأســـطورية في بونت، ومعروفة أيضًا لدى المصريين القدماء باســـم (مصدر الذهب، والعاج، والخشـــب الأســـود) ولكن من بلاد اشـــتهرت بتصدير الخيرات للفراعنة لتتحـــول إلى بلاد قطاع الطرق والفوضى على مدار اليوم، انهارت الدولة وســـقطت الحكومة في عام

1991 وهذا إثر انتشـــار المجاعة في ربوع البلاد.. وبدأ ظهور قوافل من الأمم المتحدة وقوات حفظ الســـلام تحت لـــواء القوات الأمريكية، وقد انتهى كل ذلك في أكتوبر 1993، وذلك عندما تم إســـقاط طائرة أمريكية طراز (الشبح) في حادثة إطلاق نار على الطائرة، وكان على متنها 18 أمريكيًّا وماليزيًّا، وقد لقى الجميع حتفهم.

ويدعي هؤلاء القراصنة أنهم كانوا يعملون في مهنة صيد الأسماك، إلى أن تم إرغامهم وإجبارهم على العمل كقطاع طرق، عندما انقطعت بهم سبل الرزق والعيش، وتبعًا لحديثهم وادعاءاتهم، حيث يقولون أن سفن الصيد الأجنبية كانت تأتي إلى شواطئهم لتصطاد ما يقدر بمئات الملايين من الدولارات من أســـماك التونا، السردين، ماكريل، وسمكة السيف.. من المحيط التابع لهم.

وسفن أخرى أتت إلى مياههم لتلقي بالنفايات الخطرة بها وتجني الأموال، وقد عجز الصيـــادون المحليون عن مجاراة القوافل المتقدمة والضخمة في صيد الأســـماك، والتي كانت تأتي من إسبانيا واليابان.. وقد لاحظوا أن تلك السفن كانت تطلق النيران على الصيادين المحليين إذا حاولوا الصيد في نفس المنطقة، وقد وصل الأمر إلى اســـتعطاف الصيادين المحليين لتلك السفن الكبيرة كي يتركونهم يعملون.. ووصل الأمر أيضًا إلى المجاعة.

لكنني كنت أشـــاهد مراكز تدريب على صيد (الماكريل، والتونا) وأنواع أخرى من الأســـماك فـــي كل مرة أتوجه بها قرب الســـاحل

الصومالي.. كانت هناك حياة وفرص عمل، لكن أعتقد أن الصوماليين يبحثون عن الربح الوفير والسهل والسريع ألا وهو... القرصنة.

في العـــام 1990 بدأت بعـــض المراكب في مغـــادرة الموانئ الصومالية، وعلى متنها رجال مســـلحون ومهاجمة الســـفن الأجنبية وطلب فدية صغيرة.

فقد كانوا قاطعي طرق محترفين... بلا رحمة، والذين كانوا يأخذون أي شـــيءٍ في عام 2008 ربحوا 120 مليون دولار، في بلدٍ يجني فيها معظـــم الناس راتب في حدود 600 دولار فـــي العام، فقد ترك هؤلاء الناس وراء ظهورهم صيد (الســـردين والتونا).. بالنسبة لي، لم يكن هناك أي فارق بينهم وبين بعض عصابـــات المافيا المبتزين، أو أي سارقٍ مسلح يذهب لسرقة محطة وقود، نعم إنهم فقراء، لكن السرقة هي السرقة.

وعندما بدأت أعمـــال القرصنة في بدايـــة 1990، كانوا يطلقون النيران من الموانـــئ المحلية على بعض القطع البحرية الخشـــبية القديمة والتي تعمل بمحركٍ واحد ليكون من السهل سرقتها واختطاف من فيها، وهذا كان يغطي مســـاحة بعض الألف المربعة من الأميال البحرية في المحيط، حيث كانت سفن القراصنة غير مجهزة للإبحار لمسافاتٍ بعيدة والعودة، وعندها بدأت التحذيرات تنتشر واستطاعت أغلب السفن الإبحار على مســـافاتٍ بعيدة عن الساحل الصومالي، لذا لم يحالف القراصنة حظ كثير في ذلك الوقت، بعدها غير الصوماليون قواعد اللعبة، فبدلًا من مهاجمة الســـفن الصغيرة واختطاف طاقمها

وطلب فدية والحصول على المال، قاموا باختطاف السفينة نفسها واستعملوها كقاعدةٍ لأسطولٍ قويٍّ يستخدمه القراصنة للوصول إلى المسافات البعيدة والتي يهرب إليها أغلب السفن الكبيرة.

فعندما يرصدون أي سفينة كبيرة، ينزل بعض القراصنة إلى زورقٍ سريع من مركبهم الكبير المجهز، ويقومون بمحاولة اختطاف تلك السفينة، ولا يهمهم كثيرًا إذا فشلت المحاولة، فهم يعودون إلى السفينة الأم، ويكررون المحاولة مرة أخرى، حيث تستطيع تلك السفينة الأم المكوث في المحيط لأيامٍ طويلة.

وبداية من عام 2005 لم تعد هناك طريقة للهروب من الساحل الصومالي، فأينما كنت يستطيعون الوصول إليك.

هناك خطوات ثابتة يتبعها القراصنة للهجوم، وهي كالتالي:

ثلاثة أو أكثر من الزوارق السريعة تتحرش بالسفن قبل غروب الشمس أو بعد سطوعها في الصباح.. يتحركون بسرعة وتتبعهم السفينة الأم لتقوم بعمل تغطية وتعتيم على السفينة كي لا يراها أحد من السفن الأخرى، فيقترب القراصنة من السفينة ويلقون بسلم له (خطافات) على جانب السفينة، وبعدها يبدأ القراصنة في تسلق ذلك السلم وبعدها الصعود إلى ظهر السفينة وبعدها تبدأ التهديدات والمساومات على الفدية.

وبعد أن يتم استهدافك، لا تستطيع الاتصال بـ 911 طلبًا للنجدة حيث لا يوجد هناك مرسى حدود صومالي لحمايتك، والنجدة الأمريكية والأوربية لا تستطيع تأمينك أو الحفاظ على سلامتك.

يوجد حوالي 20 فرقة من القوات لمكافحة القرصنة ولكنها كلها مرتكزة في مضيق خليج عدن والساحل الجنوبي من اليمن، تاركين الساحل الصومالي بلا حماية، والمنطقة بالكامل مساحتها ملايين الأميال المربعة..

والقراصنة يستطيعون الاستيلاء على السفينة في غضون دقائق، وأن أفضل شيءٍ تستطيع فعله هو الاتصال بغرفة التجارة البحرية البريطانية حيث لهم قواعد في الخليج الفارسي والمحيط الهندي، فسوف يتلقون الاستغاثة، يهدف أصحاب السفن للوصول بتجارتهم إلى الموانئ المنشودة بأمان، دعنا نتحدث بصراحة، فالدافع الرئيسي لديهم هو إنهاء موقف الاختطاف والفدية سريعة لتستطيع السفينة مواصلة إبحارها إلى الوجهة التي تبحر إليها.

فما يفعلونه هو استئجار مروحية، لتسقط منها لفافة بها الأموال، الفدية على ظهر السفينة المختطفة وطبعًا هذه اللفافة معزولة عن المياه ولا تتأثر بها، وقد قامت إحدى الشركات باستخدام أسلوب (جيمس بوند) في إيصال مبلغ الفدية، حيث هبط أحد رجال المظلات على ظهر السفينة وبصحبته حقيبة بها ثلاثة ملايين دولار على سطح سفينة (سيرياس ستار).. الجميع رابح، شركة الأمن التي

أرسلت الأموال ربحت، القراصنة ربحوا وأصحاب السفينة استعادوها بالبضائع، وقامت شركة التأمين بدفع بعض التعويضات.

أما طاقم السفينة فيعودون في أول إجازة إلى عائلاتهم المصابين بالذعر من الأخبار التي وصلت إليهم عن اختطاف السفينة، يتبادلون البكاء أثناء العشاء، وينسى الجميع كل شيء، ثم في أول فرصة يعودون إلى عملهم في البحر مرة أخرى، فهم الوحيدون الذين لا يحصلون على أي تعويضاتٍ أو أي استفادة، عادة ما يدعي القراصنة أنهم يحسنون معاملة الأسرى والمختطفين، وحسب ما سمعت فإنها حقيقة، لكن أعلم جيدًا أنهم يطلقون النيران على ظهورهم.

عندما قام مجموعة من الصوماليين باختطاف سفينة صيدٍ تايوانية (تشينج نونج هوا 168) في أبريل 2007، قتل أحد طاقم السفينة بطلقاتٍ في ظهره خلال الهجوم، وذلك عندما رفض مالك السفينة أن يدفع 1.5 مليون دولار فدية، بعدها اختاروا بحارًا صينيًّا بشكلٍ عشوائي وأطلقوا على ظهره 6 طلقات وقتلوه بدمٍ بارد، وقد أراد القراصنة إلقاء جثته للقروش الجائعة في المحيط الهندي، لكن القبطان أقنعهم بإمكانية حفظها في ثلاجة السفينة، بعدها وضع القراصنة البندقية مصوبة إلى رأس نجل القبطان البالغ من العمر 22 عامًا، وسيضغطون على الزناد، إلا إذا قام القبطان بالاتصال بتايوان ويأتي أحدهم ليتم التفاوض على المبلغ، لمدة 7 شهور عاش فيها الطاقم في جحيم، كانوا يسحبونهم من أسرتهم ويبدأون بضربهم

والتهديد بقتلهم ثم يجعلونهم يتصلون بعائلاتهم ويبكون، كي يتصلوا بشركة الملاحة لترسل الفدية.

فإذا لم يحصلون على الأموال، فلديهم وسائل لتعذيب الطاقم، أمسكوا ببحارٍ روسي رفض مالك السفينة دفع 10 مليون دولار، وصفوه على سطح المركب تحت حرارة الشمس والتي تخطت الخمسين درجة مئوية، ومرة أخرى قاموا بحبس نيجيري في حجرته الضيقة لمدة ثلاثة شهور كاملة، لا يرى النور أو الشمس أو أن يتنفس هواءً نقيًّا، ومرة ثالثة بحار هندي، ضُرب وعُذب وتم تهديده بالقتل أكثر من مرة.

عند دخول (ميرسك ألاباما) خليج عدن، كان هناك أكثر من 200 من طواقم من سفن مختلفة محجوزين كرهائن من قبل القراصنة، وينتمون لأكثر من 200 سفينة، وأكثرهم تم اختطافهم في المحيط الهندي.

كان هناك أربع مجموعات رئيسية تسببت في تلك الفوضى، ومن ضمنها حرس السواحل القومي التطوعي، والذي كان ينحاز إلى مراكب الصيد الصغيرة، وأيضًا هناك مجموعة (ماركا) والتي تعمل خارج حدود الصومال وبنفس الاسم.

أيضًا مجموعة بونتلاند والتي كانت في صيد الأسماك وبعدها اتجهت لأعمال قطع الطرق.. والأخيرة هي القوات البحرية الصومالية، حيث لهم اليد الطولى في مساعدة القراصنة وتحديد الأهداف وتوجيه القراصنة بالهاتف العامل بالقمر الصناعي حيث كانوا يهدفون لاختطاف السفن الكبيرة مثل: حاويات النفط، وناقلات البضائع، كانت

أكثر الأخبار المزعجة عن القرصنة تأتي عن طريق شـــقيقي، والذي يعمل كمحلل في محميات الشرق الأوسط ومقرها واشنطن دي سي.

فلقد أخبرني أنه رأى تقارير عن مقاتلين باكستانيين ينتمون إلى تنظيم القاعدة، يتجهون إلى اليمن والصومال، وهذا ما أدى إلى ازدياد القلق داخلي، والقاعدة هذه هي لعبة أخرى تمامًا.

فلقد وصل إلى مســـمعي حادثة مريبة عن مجموعة من القراصنة هاجموا سفينة في خط (ملاقا الملاحي) غرب ماليزيا.

وضعوا ســـلمًا في جانب الســـفينة وصعدوا إليهـــا وقاموا بجمع جميع أفراد الطاقم ووضعوهم فـــي حجرةٍ واحدة، تعتقد بعدها أنهم قاموا بطلب فدية، لكنهم لم يفعلوا ذلك، ذهبوا إلى الأســـفل إلى حجرة المحركات للتأكد من عملها، ثم صعـــدوا إلى قمرة القيادة وبدأوا في قيادة السفينة، ثم اســـتعملوا أجهزة الراديو واتصلوا بخدمة السفن، وســـألوا عن بعض الخطوط الملاحية.. وقاموا بالتعلم والتدريب على عمل السفينة، غادروا السفينة وأخذوا معهم كل كتب تشغيل المحركات وطرق تشغيل قمرة القيادة وبعض نقاط الوصول عبر خطوطٍ ملاحيةٍ مختلفة.

وكان من الواضح أنهم جمعوا كل تلك المعلومات والتدريب لحساب منظمة تنظيم القاعدة والتي قامت فيما بعد بضرب أمريكا 2001.

بعدمـــا قمت بالاطلاع علـــى آخر الأخبار، كتبـــت (إيميل) لـــــ (أندريا).. حيث كنت أشـــعر بالوحدة، حيث مؤخرًا كنا نبحث عن كلبٍ للتربية كي يعوضنا عن الكلب السابق (فراني).

هاي إنجي.

هل هناك أي أخبار عن الكلب؟ كنت أفكر في الكلب (فراني) الليلة الماضية، شعرت بالدموع تحيط روحي، فكرة تبني كلب لا تفارقني، أحتاج إلى كلب!

خلال رحلتي إلى مومباسا، سوف أتصل بكم يومي 11، 12 أبريل، الطقس يبدو لطيفًا للغاية إلى أن تبدأ الرياح الموســـمية في الهبوب، ازداد نشاط القراصنة في الفترة الأخيرة، فهم يهاجمون حتى السفن البحرية الحربية، أعتقدهم لا يدركون أنها سفن حربية.

حبيبك آر.

لم أشأ أن أسبب أي نوعٍ من أنواع القلق لـــــ (أندريا).. لكنني لم أستطع أن أدعي عدم معرفتي بوجود الصوماليين حولنا، فقد تناقشت وتحدثت مع (أندريا) كثيرًا في هذا الأمر قبل رحيلي حيث أخبرتها أن الأمور سيئة في هذه المنطقة، وأنهم يومًا ما سوف يختطفون سفينة أمريكية.

أجابتني: "هم ليســـوا بهـــذا الغباء، هم لا يســـتطيعون مهاجمة سفننا".. ولكن في أعماق قلبها هي تعلم أن هذا الأمر يمكن أن يحدث، وهذا كان جزءًا من واجبها كزوجةٍ لقبطانٍ بحريٍّ تجاري، لكنها كانت

تعتمد كثيرًا على وجود العلم الأمريكي فوق السفينة، وهو كافٍ لإبعاد القراصنة والذين ســـوف يرهبون مهاجمة سفينة بها علم عليه نجوم وخطوط، كنت دومًا أنا و(أندريا) محظوظين، نعمل بكل جدٍّ واجتهاد، لدينا كل ما نتمناه، فنحن محظوظان ويباركنا الرب دائمًا، فهي تعتقد أن هذا الحظ سيستمر معي طوال الوقت.

كان أصدقاء (أندريا) دائمًا ما يتعجبون منها ويقولون:

نحن لا نعرف كيف تفعلين هذا، كونك زوجة لقبطانٍ بحري!

وكانت تجيب بروح الدعابة قائلة:

هل تمزحون؟

زوجك غائب نصف العام، تحصلين الكثير من المال!

فيضحك الجميع.

ولكـــن هذه حقيقة، فزوجـــات العاملين في البحـــر دائمًا أقوياء ومشتعلات يستطعن فعل وإنجاز أي شيءٍ مهما كان.

ربمـــا قوتها هذه موجودة في عائلتها وهـــي ورثتها.. حيث كانت أمها تحمل الكثير من المسؤوليات، فلقد تم طلاق والديها عندما كانت (أندريا) في مرحلة المراهقة، وأصبحت أمها ومعها 6 أطفال وحيدة.. فكانت تعمل كثيرًا لتستطيع الإنفاق على أولادها، عاشت (أندريا) هذه الأجواء وعرفت كيف أن الحياة صعبة!

وكزوجةٍ لقبطانٍ بحري، تتمنى دائمًا الســـلامة لزوجها وأن يخرج بأمان من هـــذه المناطق الخطرة، الاختطـــاف والقرصنة لن تحدث

لنا، هكذا كانت دومًا تقـــول، تلقيت (إيميل) من (أندريا) يوم 5 أبريل وتضمن أخبارًا عن العائلة وعن زوجة أبيها (تينا) وزوجها (فرانك).

هاي

إنها الآن السابعة صباحًا.. أيقظتني (ماريا) لتخبرني بهبوط الثلوج حيث كانت متجهة إلى حظيـــرة الحيوانات، الحفل الذي أقامته (تينا) كان رائعًا برغم برودة الجو وهطـــول الأمطار، أعتقد يجب أن نصلح بين (تينا، وفرانك).

أفتقدك كثيرًا.. وجدت نفسي أستيقظ مكان نومك.. أتمنى أن يكون كل شيءٍ جيدًا معك، افتقدت سماع صوتك.

حبيبتك

أندريا

الفصل الخامس

قبل 3 أيام

الرحلـــة إلى جيبوتي كانت هادئة وبلا منغصات، كان هناك بعض الكلام والثرثـــرة على جهاز الراديو.. إنه تم رصـــد قارب للقراصنة، لكننا لم نشاهد أيًّا من هذا على (الرادار) أو بالمشاهدة من على سطح السفينة، أبحرنا في الاتجاه الجنوبي العربي بمحاذاة الساحل، وصلنا إلى اليمن في الخامس من أبريل، قضينا يومًا من العمل الشاق لإنزال وتفريغ بعـــض الحمولة في الميناء، وفي اليوم التالي 6 أبريل، غادرنا الميناء متجهين شـــمال شرق، كنا في منتصف الطريق في ممر خليج عدن، مررنا من الخليج بشـــكلٍ هادئ، والآن علينا الاتجاه إلى منطقة القرن الإفريقي.

كل ميناء في العالم له ســـمعة وشهرة معروفة، وعادةً ما يصدرون البحـــارة أحكامهم عن الموانئ من خلال مجموعة القوانين والمحاذير الصارمة التي لم تتغير منذ مئات الســـنين، ويبدأ التساؤل عن الميناء؛

هل هو زهيد الثمن؟ هل هناك فتيات حول الميناء؟ هل يقدمون الجعة (البيرة)؟ وهل هناك شـــيء يمكن أن نفعله؟ إذا كانت الإجابة عن هذه الأســـئلة بـــ "نعم" فسوف يرحب جميع البحارة في العالم، بالسباق للحصول على رحلة إلى هذه الموانئ؛ ميناء الإســـكندرية في مصر، ميناء رائع لأنه زهيد الثمن، ويمكن أن تســـتقل القطار، وبعد ســـاعة تستطيع مشـــاهدة الأهرامات.... و(خليج روبيك) في الفلبين يقدمون جعة زهيدة الثمن، ويمكن أن تجد الفتيات الجميلات.

بينما على الجانب الآخر، هناك ميناء (شـــونجين) كوريا الشمالية، ميناء ســـيئ للغاية حيث أنك غير مســـموح لك بمغادرة السفينة في الميناء، وإذا أتيحت لك الفرصة أن تغادر الميناء، فالناس هناك مرعبون وفقراء وأيضًا، هناك موانئ في كولومبيا والأكوادور حيث تسمع صوت طلقات النار الآلية وســـط الليل، ويمكن أن تشـــاهد أيضًا المهاجرين الغير شرعيين، يحاولون الإمساك بأحبال السفينة والتعلق بها.

أما الموانئ الأفريقية، فلها مزيج من الشهرة والسمعة.

(ممباسا) حيث هي الوجهة التالية لنا، ميناء مؤمن حيث تجد خفر السواحل مسلحين يقومون بحماية سور الميناء، وإجراءات الأمن ليست معقدة، بل بسيطة حيث يستطيع بعض السكان المحليين أن يتسللوا إلى الميناء في جنح الليل، ويقومون بسرقة زوارق الإنقاذ ثم يبيعونها ثانية إليك بسعر 25 دولارًا للواحدة، ليس هناك ميناء آمن بالكامل.

ســـافرت في إحدى المرات إلى (ســـيراليون) إبان الحرب الأهلية، وكنت أشـــاهد الناس يلوحون بإيديهم لتحيـــة البواخر من على خط

الســـاحل، ومن الغريب أن أرى أيديهم مقطوعة بســـيف الثوار لأنهم ذهبوا وأدلوا بأصواتهم.

وفي مرةٍ أخرى كنت في (مونروفيا) (ليبريا) في أســـبوع ما قبل الثورة، وقاد البلاد وقتها (تشـــارلز تايلـــور).. إنه عالم آخر.. لم تكن هناك كهرباء ما عدا بعض الأماكن التي تستعمل مولدات كهربائية.

قوات حفظ الســـلام في غرب أفريقيا، صعدوا إلى السفينة، وعلى الفور بدأوا المساومات للحصول على رشاوى، لم يكن هناك دور للأمن على الإطلاق وكان هناك مئات الأشخاص على رصيف الميناء ينتظرون وصولنا ليعطونا رسائل، بعضهم كتب على ظهر علبة كبريت، وبعضهم يقول في الرسالة:

"يمكـــن أن تتركي هنـــا، لكن أرجوك أن تأخذ أســـرتي معك إلى أمريكا."

وقد تحدثت إلى أحدهم، فقال لي: "أنا أســـتاذ جامعي، لا أستطيع الحصول على عمل، وأســـرتي تموت جوعًا، هل يمكن أن توكل لي بأي عمل".. شعرت بالخزي والحزن أنني لم أستطع أن أقدم له إلا القليل، وفي إحـــدى المرات في (مونروفيا).. كان هناك شـــخص يحتاج إلى العمل بشدة، قلت له: "حسنًا، أحتاج إلى 4 من العمال، اختر لي أربعة وأنت المسؤول عنهم، وأنا سأجزل لك العطاء، وإذا لم يقوموا بعملهم بشكلٍ جيد، فلا مكان لك عندي"

وكانت الأجرة المتعارف عليها للعمال هي 1 دولار في اليوم.. وكان هذا جيدًا بالنســـبة لطبيعة الحياة في (مونروفيا).. وقد استحق هذا الرجل العمل حيث اســـتمر عمله بجد لمدة 7 أو 8 أيام، لم يقصر في العمل على الإطلاق وهذا ما كنت أحبه، وفي يوم قبض الرواتب، أتى إليَّ قائلًا: "أنا لا أريد أموالًا نقدية".. أريد قطعًا من الأخشاب، حيث كانت ظروف بلادهم سيئة لدرجة عدم توافر أي موادٍ للبناء، وألواح الخشب كانـــت بمثابة الذهب حاولت أن أثني رأيه عن هذه الفكرة، وأخبرته أن النقود أفضل له، لكنه أصر على طلبه، أعطيته عربة محملة عن آخرها بالأخشاب، أخذ الأخشاب إلى حيث الغابات والينابيع ليبني له بيتًا.

وفي اليوم التالي أتى إلينا وعليه آثار ضربٍ شديد.. وبالكاد يستطيع أن يمشي، فحدث أنه عندما غادر الميناء ومعه حمولة الأخشاب، قامت قوات حفظ السلام بسرقة الأخشـــاب من السيارة، وحاول أن يتواجد وسط الأخشـــاب ويمنع الســـارقين من أخذها حتى ولو حافظ على ثلث الحمولة المتبقية، لكنـــه تعرض إلى ضربٍ مبرح، حاولت علاجه وأعطيته بعض الأموال والملابس، فقد أوشكوا على قتل هذا المسكين من أجل بعض الألواح الخشبية.

في (مونروفيا) ليبيريا.. كان هناك عرض يومي في الساعة الواحدة حيث تضـــع الحمولة من البازلاء والقمح على رصيف الميناء، وبمجرد أن تلامس أرض الرصيف، ينطلق المئات من المنتظرين على رصيف الميـــاء وينقضوا على تلك الشـــحنات ويقـــوم (البوليس) بمحاولة لتفريقهم مستعينين بهراوات خشـــبية، وكان أحدهم يرمي بجوالات

القمح من خلال حفرة طويلة تأخذه خارج الميناء، فيحمل الجوال الذي وزنه 60 رطلًا ويقذفه في الحفرة ثم يقذف بنفسه خلفه.. هنا يأتي أحد رجال الشرطة ويصوب مسدسه داخل تلك الحفرة ويطلق النار.

أي قبطانٍ أبحر إلى شرق أو غرب أفريقيا، رأى كم معاناة الناس هناك.

في تمام الواحدة ظهرًا.. غادرنا ميناء جيبوتي بسلام وبدون أي قلاقل حيث أخذنا طريقنا حول القرن الأفريقي، وكنا نشاهد خط الساحل الصومالي، كنت مدركًا أننا ما زلنا وسط أخطر منطقة على الإطلاق في الرحلة كلها.. كنت قد حددت موعدًا للتدريب على نوبة الخطر، كي نقوم بتدريب البحارة الجدد ومراجعة كفاءة قوارب الإنقاذ وتدريبهم على كيفية استخدامها.

ثم بدأنا مراجعة إجراءات السلامة العامة، وكيف يختبرون صلابة قوارب الإنقاذ، وتحديد مهمة وطبيعة عمل كل فردٍ في قوارب الإنقاذ، وتدربنا على كيفية أخذ كل فردٍ موقعه بسرعة.

قام (شين) بإطلاق صافرات نوبة الخطر، وبدأ بسؤال كل فردٍ عما سيقوم به، ويصحح له بعض الأخطاء إن وجدت..

وكان هذا اليوم حارًّا للغاية، مع بعض الرياح الخفيفة على المياه بسبب هبوب بعض الرياح الموسمية الخفيفة، كانت درجة الحرارة في غرفة القيادة 95 درجة فهرنهايت أي حوالي 35 درجة مئوية، ومدى الرؤية حوالي 7 أميال.

كنت متواجدًا وحدي في منطقة القيادة، أمشط المنطقة والأفق حولنا وفي نفس الوقت كانت عيناي على شاشة الرادار طوال الوقت.

في حوالي الساعة 1.40 ظهرًا.. ظهرت علامات ثلاث قطع على الرادار على بعد 7 أميال خلفنا وكانوا يبحرون بسرعة، على الأقل بسرعة 21 عقدة.. نظرت إلى الخارج خلفنا واستطعت أن أرى بعض ملامح منهم حيث من الصعب أن ترى تفاصيلًا من على بعد هذه المسافة الطويلة.

بدأت أراجع كل تدريباتي السابقة وما تعلمته من قبل.. ثم أخذت نظارتي المكبرة، قمت بضبط عدساتها، وبدأت أنظر إلى الخارج ثم أعود لأنظر إلى شاشة الرادار، كان هناك زورقان سريعان خلفنا وخلفهم قطعة بحرية كبيرة على بعد حوالي 8 أو 9 أميال.. إنها السفينة الأم التي عادةً ما تتبع الزوارق السريعة التي يستقلها القراصنة كما تعلمت مشاهدته بشاشة ثلاثية الأبعاد، وتأكدت أنه يتبعنا حيث هو كالظل خلفنا، أي اتجاه نتوجه إليه، هو خلفنا تمامًا.

أعتقد أنني استطعت أن أرى السفينة الأم ذات مرة أثناء بداية عملي، والآن أرى هؤلاء القراصنة بعينيَّ.. وقد بدأ قلبي ينبض بشدة.

تحادثت مع (شين) على الراديو:

– هناك احتمالية وجود قراصنة خلفنا على بعد 7 أميال من ناحية مربع الميناء.

أجابني:

– هل تريدني أن أنهي نوبة التدريب على الخطر؟

قلت:

لا، ليس الآن.. ربما نلغيها فيما بعد، أنا أردت فقط أن أحيطك علمًا.

كنت ما زلت غير مقتنع أنهم قراصنة، حيث أن الوقت المعتاد لديهم للهجوم على السفن بعد الساعة 5 فجرًا، وأيضًا قبل غروب الشمس حوالي 7.45 مساءً.. حيث تتغير حالة الجو أحيانًا ويصبح مدى الرؤية أربعة أميال بدلًا من 7 أميال، ولكن في تمام الواحدة ظهرًا، الرؤية دائمًا في أفضل حالاتها، لهذا كان هذا الوقت غريبًا على الصوماليين أن يقوموا بالهجوم به، كانوا يتقدمون بشكلٍ سريع، طلبت من (شين) الحضور ومعه بحار يدعى (آندي).. هو بحار قديم ولديه الكثير من الخبرات ويستطيع الرؤية لمسافاتٍ بعيدة.. حيث حدث ذات مرة أن أخبرني أن هناك سفينة تتبعنا على مسافة 15 ميلًا، ولم أصدق كيف يستطيع أن يرى خلال تلك المسافة البعيدة بدون أي وسائل مساعدة، فقط بعينيه، فأخبرني أن أستعمل النظارة المكبرة وأتأكد، كان على حق، ومنذ هذا اليوم وأنا أعتمد عليه لرؤية المسافات البعيدة.

حركت عجلة القيادة للسرعة الأعلى وتم تلقي هذا الأمر في حجرة المحركات، وعلى الفور زادت سرعة السفينة حيث استجابت المحركات للسرعة الأعلى وبعد أن زادت السرعة اتصلت بكبير المهندسين وطلبت منه التواجد في حجرة المحركات ليتأكد من سلامة المحركات مع السرعة القصوى.

وبدأت زيادة السرعة إلى أن وصلت إلى السرعة القصوى للسفينة، وكنت مطمئنًا لوجود (مايك) كبير المهندسين في حجرة المحركات لمراقبة أحمال المحرك، درجة الحرارة للأسطوانات وكذلك العادم، وكنت في انتظار أن يخبرني (مايك) بأي مشكلات في المحرك، ثم ركضت إلى حجرة الاتصالات وطلبت غرفة الملاحة البريطانية، سمعت ردًّا من صوتٍ بلكنةٍ إنجليزية (بريطانية).. قلت: "هنا ماريسك الاباما.. لدينا ثلاث قطع بحرية تحاول الهجوم علينا وهم خلفنا بمسافة 5 أو 6 أميال مع احتمال وجود السفينة الأم معهم والتي خلفهم بميلٍ واحد.. يبدو أنه قرصنة."

لم يبدِ الصوت الذي يسمعني أي اندهاش حيث كنت متأكدًا أنهم يتلقون اتصالات من سفن تمر أمام السواحل الصومالية لتبلغ عن مراكب صد أو قطع من البراميل ملقاة في المياه.

فقال: "هناك كثير من قادة السفن في حالةٍ عصبية سيئة."

أردت أن أقول له أنني لست عصبيًّا.

ثم أضاف قائلًا: "ربما تكون بعض مراكب الصيد.. لكن عليك الأخذ بالاعتبار والاحتياط لهذا الموقف.. اجمع طاقم السفينة وأحكم غلق الأبواب وجهز خراطيم المياه."

لم أصدق ما سمعته، في البداية قال أنهم بعض الصيادين وثانيًا؛ يقول لي بعض الإجراءات البدائية البديهية التي يقوم بفعلها أي بحار.

قلـــت له: "إذا لم يكن الأمر جادًّا، لما كنت حادثتك.. أنا فقط أعلمك بالموقف الذي نحن فيه."

قال: "أعلمني بالتطورات" قلت: "حســـنًا، ســـأفعل." ووضعت السماعة ثم قمت بعدها بطلب مكالمة لأحد خطوط الطوارئ الأمريكية الخاصة بحوادث القرصنة، فإذا كان هناك احتمال لتعرضك لاختطاف أو أسرك، فيجب أن تعلم حكومتك بذلك إذا استطعت، وبينما أنا أحاول طلب الرقم، كانت عيناي مثبتتان على شاشـــة الرادار وأنا أشاهد تلك الـــزوارق تقترب أكثر، كان هناك جرس يـــدق على الجانب الآخر، بلا إجابة، واستمر دق جرس الهاتف إلى النهاية بلا استجابة، لا أستطيع أن أصدق، لا استجابة من أحد، كنت غاضبًا من ذاك الرجل البريطاني، ولكن اتضح أنه على الأقل قام بالرد على مكالمتي.

الزوارق تقترب، أســـتطيع أن أراهم بوضوح من نظارتي المكبرة، كان الطاقم في حالة استعدادٍ حيث يشعر الجميع بالخطر القادم.

على بعد 5 أميال.. 4 أميال.. أستطيع أن أراهم بوضوحٍ أكثر، إنهم بالتأكيد صوماليون في زورقٍ سريع، ابتعدنا عنهم بعض الشيء حيث شعرت أن أحد زوارقهم بها مشـــكلة ولا يستطيعون السيطرة عليها، فعليهم إطفاء المحـــرك والانتظار لبعض الوقت ثم إدارة المحرك مرة ثانية، فكان اتساع المحيط يساعدنا حيث المياه العميقة والمساحات الواسعة تســـاعدنا على المناورة معهم، الدقائق تمر بطيئة في البداية كانوا يظهرون ســـرعة وتقدمًا، أما الآن فيبدو أن لديهم مشكلة أبطأت من سرعة الزورق.

عندما قاربت الساعة على الثالثة عصرًا، اكتشفت أننا كنا في سباق ســـرعة مع الزوارق لمدة ســـاعة كاملة، الآن هم يقتربون أكثر حيث المسافة خلفنا ثلاثة أميال، الآن أشاهد أربعة رجال في الزورق الأمامي، يحملون في أيديهم بنادق آلية.

نظرت حولي فشـــاهدت خمسة أو ســـتة من رجالنا حول منطقة القيادة ينظرون إلى الخارج، أنا عادةً لا أســـمح لهم بالتواجد في هذه المنطقة، منطقة القيادة لكـــن نظرًا لما نحن مقدمون عليه، فالأفضل بقاؤهم ليشـــاهدوا معي ويتابعوا ما يحدث حولنا، لم يكونوا خائفين بعد لكن الأمور تنذر بالخطر القادم، والآن جاءتني فكرة في رأســـي أردت تنفيذها.

فطلبت من المساعد الثاني، أن يأخذ جانبًا ويتحدث لي عبر جهاز الراديو، وأنا سأدعي أنني فوق سطح سفينةٍ حربية، فإذا كان القراصنة يتنصتون على اتصالاتنا ويفتحون نفس موجـــة الراديو لمعرفة أي معلومات، وماذا نقول.. وهذا ما يحـــدث عادة، لذا أردت أن يصل لي مسامعهم أننا على اتصالٍ بمدمرةٍ بحرية، قال المساعد الثاني: "ماذا يا كابتن؟" لم يكن لدي الوقت الكافي لأشـــرح له، فقلت: "انسَ الأمر برمته.. فقط راقب ما ســـأفعل".. قمت بالضغط على زر الميكروفون للتحدث عبر جهاز الراديو "وارؤشيب 237... تحالف وارشيب 237... ماريسك ألاباما... أسمعك".

حولت نبرة صوتي إلى نبرةٍ جهورية كأنني شـــخص آخر يتحدث معه من ســـفينةٍ حربية "ماريسك ألاباما.. أســـمعك.. تحدث.. نحن

تحالف 237" قلت هذا بنبرةٍ جهورية وبلكنةٍ غير لكنتي الحقيقية، لقد ادعيت أنني من قطعةٍ بحريةٍ قريبة، ثم أعدت صوتي الحقيقي قائلًا:

– هنا ماريســـك ألاباما، نحن نقع تحت هجومٍ من قراصنة وموقعنا هو 20 درجة 2 شـــمال في 49 درجة 19 شرقًا، وسرعتنا 18 عقدة، ونطلب دعمًا ومساعدةً عاجلة.

– ماريسك ألاباما.. كم عددكم على السفينة؟

– عشرون رجلًا.. ليس هناك أي جرحى في الوقت الحالي.

– نحـــن لدينا مروحية تجوب المنطقة وهـــي قريبة منكم.. أكرر، نحن لدينا مروحية تجوب المنطقة وهي قريبة منكم، سوف يصل إلى موقعكم في وقـــتٍ قصير للغاية أكرر، في خلال خمس دقائق تصلكم مروحية حسب الموقع الذي ذكرته."

كدت أن أضحك وأنا أقوم بدور رجلين يتحدثان ســـويًّا، فما أتعلم غالبًا ضد القانون وغير شرعي، وعادةً قطع البحرية لا يستجيبون لأي نداءٍ بهذه السرعة، وهم لديهم الشفرة الخاصة التي يتحدثون بها، لكن أي قاطع طريق صومالي يسمع هذا الحوار، فسوف يعلم أن الهليكوبتر سوف تفتح عليهم النيران لتمزقهم وتحولهم إلى أشلاء، بعدها لاحظت أن السفينة الأم اختفت من على شاشات الرادار.. ماذا يحدث؟ هل من الممكن أن يلغوا هجومهم علينا، وواحدة من الزوارق السريعة اتجهت بعيدًا عنا، بعدها شعرت أن مستوى الأدرينالين عندي يعود إلى مستواه الطبيعي، هنا... تأكدت أنهم كانـــوا يتنصتون على محادثات الراديو،

وإن فكرتي نجحت وصاروا يتخبطون ويحاولون العودة.. الآن أصبح عدد زوارق القراصنة واحدة فقط، لكنها تســـير بسرعةٍ كبيرة محاولة اللحـــاق بنا، قرأت البيانات عن الزورق الذي خلفنا، كان على بعد 0.9 من الميل، أي أقل من ميلٍ واحد، يا للهول! كان سريعًا للغاية، فهو لم يهرب أو يفقد الأمل مثل بقية زملائه، يا له من وغدٍ حقير! وأنا أعلم أنه من الممكن السيطرة على سفينةٍ بزورقٍ واحدٍ من هؤلاء.. رأيت زورقًا يضرب المياه بقـــوةٍ محدثًا أمواجًا، اقترب الزورق أكثر وأكثر وأصبح على بعد 6 أقدام.. لدرجة أن (ماريسك ألاباما) كانت تتمايل من حركة أمواج الزورق، شعرت ببعض الاهتزاز تحت قدميّ.. أخيرًا زورقهم على بعد 0.9 ثم ابتعد بســـبب زيادة سرعة السفينة إلى 1.6 ميلًا إلى 1.5 ثم إلى 1.7 ميلًا.

فتشعر معها كأنها مطاردة ســـيارات، تقترب وتبتعد عن بعضها البعض، تجمع طاقم المركب على الســـطح، وأيقن الجميع أن الهجوم سيحدث خلال دقائق، قللت من سرعة المركب إلى النصف تقريبًا خوفًا على المحركات، لكن كبير المهندسين أخبرني أنني أستطيع أن أصل بالسرعة إلى القصوى، فالمحركات قوية وتتحمل، ذهبت السفينة الأم عائدة وظل الزورق يطاردنا.

الفصل السادس

قبل يومين

ما هذا الذي قاله (وينستون تشرشـــل)؟ بأنه لا يوجد هناك شيء منعش أكثر من أن يطلق عليك الرصاص وتهرب دون أي أذى.

هذا مشـــابه تمامًا إذا استطعت أن تنتصر وتتفوق على القراصنة، شـــعرت بالبهجة، وأنني قمت بعملي كقبطـــانٍ على أكمل وجه، قمت بحراسة الســـفينة والتقطت تحركات القراصنة قبل الوصول إلينا، ثم قمت بزيادة سرعة السفينة لتكون مهمتهم صعبة ويكون الوصول إلينا ليس ســـهلًا، أصعب جزءٍ في هزيمة القراصنة هو الاكتشاف المبكر لوجودهم ومحاولاتهم الهجوم، إنه من الصعب أن تكون مســـؤولًا عن سفينةٍ وعليها 19 من البحارة.

وأنك تعرفهم بالكاد، البحرية التجارية تختلف عن القوات البحرية العسكرية، فإنه من الصعب أن تجد الوقت للتعرف الجيد بطاقم العمل، عكس ما هو الحال عليه في البحرية العسكرية، حيث يعيش العاملون في السفينة شهورًا ســـويًّا خلال الدراسة والتدريب، فيعرف بعضهم البعض جيدًا ويصير بينهم صداقات متينة للغاية.

الفصل السابع

قبل يومٍ واحد

تجمع طاقم العمل في هذه الليلة حول مائدة العشاء.. ويمكنك أن تستشعر أن الجو العام مضطرب.

هل هذا أول موقف تتعرض فيه لقراصنة يا كابتن؟

أجبت:

بالتأكيد حدث.. وأتمنى أن تكون الأخيرة أيضًا.

هذه لم تكن المرة الأولى التي تتحدث فيها عن موضوعٍ كهذا، حيث في يومٍ سابق سألني المساعد الثالث (كولين):

- هل تعلم بماذا أفكر؟

ماذا؟

ماذا سنفعل إذا أخذونا كرهائن؟

بدأت في النقاش مع (كولين) حول هذا الأمر..

هل أنت قلق من هذا؟

أومأ (كولين) وكان يبدو عصبيًّا..

- إذا كنت خائفًـــا يا (كولين).. فلم يكن من الصواب أن تعمل على هذه السفينة.. ألم تكن تعلم خط سير السفينة؟

لم أود أن يقوم أحد أفراد الطاقم ببث روح الرعب في بقية الطاقم، أرغب في طاقم شجاع لديه الكثير من الثقة بالنفس وينقلها للآخرين.

في حوالي الســـاعة 3.30 صباحًا، اســـتيقظت على صوت جرس الهاتف، كان المساعد الثاني (كين) والذي يعمل كمراقبٍ وحارس من الثانية عشرة ليلًا إلى الرابعة صباحًا.

كابتن.. أعتقد من الأفضل أن تحضر إلى هنا حالًا.

ماذا هناك؟

قراصنة صوماليون.

أين؟

على جهاز الراديو.. يتحدثون عبر جهاز الراديو.

سأحضر حالًا.

أســـرعت بالذهاب عبر الممر الطويل ثم صعدت السلم إلى الطابق الأعلى حيث مركز القيادة، فتحت باب قمرة القيادة، وكان هناك (كين) وأحد البحارة، ســـمعت صوتًا يقول: "أنا فرحان صومالي.. قرصان صومالي" نظرت إلى (كين).. كانتا عيناه مفتوحتين من الدهشـــة.. نظرت لأســـفل وجدت أن جهاز الراديو تم ضبطه على قناة 16، وهي

القناة الدولية وسمعت أيضًا: "قرصان صومالي، قرصان صومالي، أنا آتي إليك لأقبض عليك."

صوت مرعب، صـــوت أفريقي، لم أكن على درايـــةٍ كافية باللكنة الصوماليـــة أو اللكنة الكينية، لكنها الحقيقـــة الآن، أننا يتم تهديدنا بشكلٍ مباشر..

ماذا حدث؟

قلت أنا.

شاهدت سفينة حربية على بعد 7 أميال، وكانت مضاءة بالكامل.

أومأت، عادة تضيء مراكب الصيد بأضواءٍ ملونة كثيرة، تساعدها في الصيد وأيضًا لتنبه الناقلات بوجودها قبل أن يحدث أي اصطدامٍ، وســـفن القراصنة عادةً لا تكن مضاءة بإضاءةٍ قوية كي يحافظ على مخزون الوقود لديه، وكذلك كي لا يلفت الانتباه لوجوده.

ثم أضاف (كين): "وبعد دقائق سمعت هذا الكلام في هذا" وأشار إلى جهاز الراديو...

تناولت النظارة المكبرة، حيث كان هناك مركب على مسافة 7 أميال وكان مضاءً مثل إضاءة مراكب الصيد، دققت النظر وشـــاهدت زورقًا خلفها مربوطًا بمؤخرة تلك المركب.

جاء الصوت عبر جهاز الراديـــو مرة أخرى.. "قرصان صومالي.. قرصان صومالي".. صوت قوي ملأ الفراغ والسكون.

وكان يتحدث كأنه يردد شعارًا

ما هي اللعبـــة التي يلعبها.. حيث كان الصوماليون مشـــهورون بالتسلل.

وآخر شيءٍ يمكن أن يقدم عليه هو القيام بتنبيهك.. هذا غير منطقي، هـــل يمكن أن يكون بعض الصيادين يمزحـــون معنا؟ أو ربما تكون خدعة لدفعنا للإبحار إلى المناطق التي يريدونها، وكما قلت ســـابقًا أن هؤلاء الناس دائمًا ما يطورون من طريقة عملهم، أصدرت أوامري بزيادة سرعة المحرك ليعمل 120 دورة بدلًا من 118 وبعدها زدنا قوة الموتور إلى 180 دورة في الدقيقة حيث أردت أن يعلم القراصنة أننا نستطيع المناورة.

استدارت الســـفينة وأصبحنا في اتجاهٍ مختلف مع سرعة زائدة، شاهدت عبر النظارة المكبرة، أن سفينتهم تسير ببطءٍ عكس اتجاهنا، لكن الزورق الذي خلف الســـفينة واصل طريقه تجاهنا، وكان واضحًا أنه إذا حدث هجوم، فســـوف يكون من هذا الزورق الســـريع، مرت ثلاثون دقيقة وأنا أراقب الموقف، لم يحدث أي جديدٍ والمســـافة ثابتة بين سفينتنا والسفينة الأم والزورق السريع الخلفي، قلت لـــ (كين): "أعتقد أننا ما زلنا بخيرٍ حتى الآن، وإذا حدث أي شـــيءٍ جديد، اتصل بي على الفور، وتأكد أنك ســـوف تملي تلك التعليمات على من يقوم بالمراقبة بعدك، وابقَ على نفس السرعة حتى أعود إليك في الصباح.

حســـب معلوماتي، فإن القراصنة لا يقومـــون بالهجوم ليلًا، وإذا كنت أنا مكان القراصنة لهاجمت الهـــدف ليلًا.. وما حدثت المفاجأة والسيطرة، والجميع ليسوا في حالة استعداد.

الفصل الثامن

اليوم الأول.. السادسة صباحًا

لدينا مقولة نستخدمها في البحرية التجارية هي: "النوم السريع" حيث يستطيع البحارة التوقف عن العمل خلال عشر ثوانٍ ثم العودة إليه بعد ساعتين، أنت قادم لتتعلم أن تفعل هذا أو لن تستطيع الاستمرار.

كنت نائمًا أشـــبه بالميت، واستيقظت في السادسة صباحًا، عندما بدأت أشعر بشعاع الشمس يتسلل خلف الستائر في غرفتي، وذلك يوم الأربعاء 8 أبريل، وبدأ يوم جديد، قمت بالاســـتحمام حيث تأتي المياه مندفعة من خزانات المياه أسفل السفينة، ارتديت ملابسي ونظرت إلى آخر تطورات الطقس.. يوم مشمس ومثالي تمامًا للإبحار ثم بدأت في تفقد البريد الوارد، هناك حديث عن القراصنة مع تحذيرات...

وكان هذا متغلغلًا داخلنا، صعدت إلى غرفة القيادة، وكانت الشمس قوية وســـاطعة للغاية، قمت بتحضير كوبٍ مـــن القهوة ثم توجهت إلى (شـــين) الذي كان يقوم بدور المراقب والحارس، وبدأنا نرتب ما

ســـنقوم به على مدار اليوم، فنحن نستعد للدخول لميناء (مومباسا).. لذلك سوف يكون يوم عملٍ شاق، حيث لدينا شحنات يجب أن نفرغها وأخرى يجب تحميلها وأخذ احتياجاتنا من إمدادات الســـفينة وملايين الأشياء الأخرى مثل: غسل الملابس ودفع مرتبات، دخول أعضاءٍ جدد من طاقم العمل معنا، وأيضًا تقوم الســـلطات فـــي الميناء بفحص وتفتيش الســـفينة للتأكد من ســـلامتها، ويأخذ هذا وقتًا طويلًا إلا أن تعطيهم (رشـــوة) فيمر الأمر سريعًا للغاية، كنت أفكر في هذه الأمور إلى أن جاء أحد البحارة وهو من أصلٍ باكستاني ليقطع أفكاري فقال: "هناك مركب يقترب للغاية، على بعد ميلٍ واحد".. بدأت أنا و(شين) في النظر خارج الســـفينة، ها هو مركب أبيض يسير بسرعة عشرين عقدة على الأقل، ويبـــدو مثل الزورق الذي كان يتبعنا بالأمس.. طوله حوالي 12 مترًا، ويبدو أن محركه بقوةٍ ممتازة.

نظرت إلى هدوء المياه، وقلة الرياح، وهذا النوع من الطقس ليس في صالحنا، قلت لـــ (شـــين): "حاول أن تجد رئيس البحارة واطلب منه تجميع طاقمه".. معظم الطاقم ربما كانوا نائمين أو على وشـــك بـــدء العمل، لكنني كنت أعلم أن رئيس البحارة، يعمل في مكانٍ ما في السفينة، قال (شين):

هو عند القوس الأمامي للسفينة.

فقط اعلم بما يحدث كي يأخذ استعداده.

تمام كابتن.

طلبت من (شين) تغيير اتجاه السفينة وتقليل السرعة لأرى إن كان هذا الزورق يتبعنا أم سيستمر ويسير في طريقه.

وحدث ما توقعته.. فلم يكن هذا الـــزورق للصيد، إنما هو أتى لنا خصوصًا، وطلبت من (شين) أيضًا الاتصال بغرفة البحرية البريطانية، لم أرغب التحدث إليهم حيث ســـئمت الحديث مع أي بريطاني، وفعلًا تحدث (شين) إليهم وسمعته يجيب عن بعض الأسئلة، عن عدد الأفراد في هذا الزورق، ونوع السلاح الذي يحملونه.... وغيرها

أخيرًا أنهى (شين) المكالمة.

سألته:

ماذا قالوا لك؟

أجاب:

اتصلوا ثانيةً عندما يكون هذا الزورق على مسافة أقل من ميل.

لم يكن لدي وقت للســـؤال.. لماذا؟ أو للجدل، أخذت جهاز راديو وعلقته في سروالي إذ أنني سأحتاجه طيلة الساعات القادمة، وذهبت لأتفقد شاشة الرادار.. "أين السفينة الأم؟" فقد كنا على بعد 300 ميل بحري من الساحل الصومالي.

فعلًا أيعقل لهذا الزورق الصغير أن يبحر كل هذه المسافة بمفرده؟ لا بد أن هناك سفينة قريبة تدعم بالإمداد والمعلومات، لكنها لا تظهر على شاشة الرادار، ماذا لو كان هذا الزورق يتبعنا ليجبرنا على التحرك تجاه السفينة الأم؟

ذهب (شـــين) إلى الصندوق الذي به الصواريخ والتي نستخدمها للاســـتغاثة وأخرج 18 صاروخًا، ثم قال: "سأذهب لأستعد وسأرسل المساعد الثالث مكاني" كنت أعلم أن (مايك) كبير المهندسين مستيقظًا وجالسًا في حجرته، اتصلت به..

وقلت لـــه: "نحن نتعرض إلـــى قرصنة الآن، اذهـــب إلى حجرة المحركات" كنت أرغب عندما نزيد ســـرعة السفينة إلى القصوى، أن يتم مراقبة الماكينات وتحمل المحرك للسرعة القصوى..

كان الـــزورق على بعد 2 ميل خلفنا وكانت ســـرعتنا 16.8 عقدة والزورق يســـير بســـرعة 21 عقدة، حيث كان على وشك اللحاق بنا، وعندما أصبحت المســـافة بيننا ميلًا بحريًّا واحدًا، طلبت من (كولين) أن يضغط زر تغيير الإنذار، قصير – طويل، قصير – طويل – قصير – طويـــل ثم بعدها ضرب التغير العام، بنفس الشـــفرة، والتي تعني للجميع أن يتوجه إلى الأماكن المتفق عليها للاختباء.

بدأنا بضخ المياه في الخراطيم والمضخات الموزعة حول السفينة، وطلبت تحويل موجة الراديو إلى قناة رقم 1 والمعنية بالطوارئ، وبدأت خراطيـــم المياه في العمل وضخ المياه بقـــوة ثم طلبت من (كولين) وأنا أشـــير إلى الصواريخ النارية: "استعد لإطلاق تلك الصواريخ.. إذا اقتربوا إلى مسافة أقل من ميل، اضرب أول صاروخ، ووجهه مباشرة إلى القراصنة" أومأ (كولين).

قاربت الساعة على السابعة صباحًا.. وكنت أنا و(كولين) متواجدين في منطقة قيادة الســـفينة، وقد احتشد باقي أفراد الطاقم في الحجرة الآمنة.

وقد تجمع المهندسون وأغلقوا عليهم بإحكامٍ باب حجرة المحركات، المهندس الأول والثالث، ذهبا إلى الحجرة الخلفية لقمرة القيادة، وكبير المهندســـين في حجرة المحركات، ووجودهم هناك يمكننا من إطفاء ووقف المحركات في أي وقتٍ نشاء، والمهندس الأول يمكن أن يساعد في قيادة السفينة إذا استدعى الأمر ذلك.

الآن أســـتطيع أن أرى بعض الأجزاء من الرجال في الزورق خلفنا، فكانوا في حالة تأهب، ينحنون للأمـــام ويتمايلون مع حركة الزورق السريعة للغاية.

طلبت من كولين: "اتصل بغرفـــة الملاحة البريطانية، أخبرهم أن الأمر خطير وليس هزلًا، واترك الخطر مفتوحًا بعد إنهاء مكالمتك كي يستطيعوا سماع ما يحدث هنا من ناحيتهم.. أفهمت؟"

قام (كولين) بعمل ما طلبته وأجرى المكالمة، وبعدها حمل معه 6 قطع من الصواريخ المضيئة ووقف في إحدى زوايا السطح.. توجهت بعدها وضغطت على زر إنذار يســـمعه مركـــز الإنقاذ ليعلموا أننا تم اختطافنا، وكذلك فعل (كوليـــن) نفس الأمر مرة ثانية بعدها بدقائق، وفجأة ســـمعت صوت طلقات نارية آلية، وكنت أرى شررًا يصدر من بنادق في الزورق الخاص بالقراصنة.

وكانوا على مسافةٍ أقل من ربع ميلٍ بحري، وزادت الطلقات وضربت الجسم المعدني لأعلى السفينة، كانت الطلقات ترتد من اصطدامها بجسم (المدخنة) المعدني.

طلبت من رئيس البحارة أن يجلس بجوار عجلة القيادة، وطلبت منه القيادة حسب ما أمليه عليه من تعليمات.. ناديت على (كولين) الواقف خارج قمرة القيادة لمراقبة الموقف: "تعال هنا يا (كولين)" فقال بصوتٍ عالٍ: "سآتي لكن بعد أن يتوقف إطلاق النار".. لم أكن أتوقع أن تسير الأمور بهذه السرعة، فنحن الآن نتعرض للقرصنة ويتم اختطافنا، ولكن أين السفينة الأم؟.. فلو أنها كانت موجودة لاستطاعوا أن يكون عدد القراصنة حوالي 25 قرصانًا، وتنتهي اللعبة لصالحهم، طلبت من المتواجدين على السطح، الجلوس أرضًا حيث الوقوف يعرضهم لخطر الطلقتين إذ يطلق القراصنة نيرانهم بزاوية ميل، فيمكن أن تصيب أحدنا إذا ارتدت من أي جسمٍ معدني كـ (المدخنة) مثلًا.

وعندما توقف إطلاق النيران للحظات، ركض (كولين) من السطح إلى مركز القيادة، بدأت أنادي في جهاز الراديو: "المسافة ربع ميل، وهم يطلقون النيران، إنهم يطلقون النيران."

كانت الطلقات تحدث دويًّا عاليًا خاصة إذا ارتطمت بجسمٍ معدنيٍّ وارتدت، نظرت في الخارج إلى الأسفل حيث زورق القراصنة، كانوا على مسافة 150 قدمًا، وفجأة استداروا بسرعة واتجهوا إلى الجانب الأيمن للسفينة.

وكانوا لا يزالون يطلقون النيران، وهذه المرة الأولى التي أتعرض فيها لإطلاق نيران، وأسمع صوت الطلقات بهذه السرعة وتلك القوة، إلا على شاشات التلفاز.

كان عليَّ أن أفعل شيئًا، أمسكت ببعض الصواريخ النارية ثم ركضت بسرعة واتجهت إلى أحد أجنحة السطح وبدأت أطلق عليهم بعض تلك الصواريخ النارية، وقد رأيتهم يقتربون أكثر من جانب السفينة والطلقات تتطاير في كل اتجاهٍ بصوتٍ عالٍ للغاية.. انبطحت أرضًا كي لا أصاب ثم وقفت ثانيةً بحذر، ونظرت إلى زورق القراصنة، شاهدت صوماليًّا جالسًا في الزورق، يضع ساقًا فوق الأخرى، واستطاع رؤية وجهي وكان أصحابه يطلقون النيران ناحيتي.. جهزت صاروخًا ناريًّا آخر وقذفته عليهم ثم انبطحت أرضًا مرة ثانية تحت الجناح، فكنت أقف وأنبطح مثل رجل العلبة أو عفريت العلبة، وكانت تلك الصواريخ النارية المخصصة للاستغاثة، هي سلاحنا الوحيد والوسيلة الوحيدة لإيقافهم، فرغت جميع الصواريخ النارية التي كانت بحوزتي وتحدثت في الراديو لمن يقود السفينة: "خمس عشرة درجة يسارًا" وكانت سرعتنا 18 عقدة، فكنا في مناورةٍ سريعة، ونأخذ مسارات متعرجة، وهذا يصعب من مهمة الزورق أن يحتك بنا من الجانب.

كان ارتفاع السطح لسفينة (ماريسك ألاباما) 20 قدمًا أعلى سطح البحر، وكل ما يريد القراصنة فعله هو الالتصاق بجانب السفينة وإلقاء سلم على الجانب من السفينة، والقفز عليه لدخول السفينة.

لذا أصدرت أوامر لمن يقود السفينة عبر جهاز الراديو: "خمس عشرة درجة يميناً" كي يبتعد جانب السفينة عن زورق القراصنة ولا يستطيعون التسلق، وشاهدت القراصنة يحملون سلمًا أبيضًا له (خطاف) من الأعلى، وتعجبت من أين أتوا بهذا السلم، فهو يشبه السلالم الموجودة في حمامات السباحة، وكان يبدو أنهم صنعوه خصوصًا لحجم السفن العملاقة، لاختطافها!

ثم رأيت السلم معلقًا على جانب السفينة، وبعدها بخمس ثوانٍ سمعت جسمًا يرتطم بجانب السفينة.. حيث قفز أحدهم على السلم وتسلق وصعد إلى السطح، وكان يبعد حوالي 17 قدمًا من مكاني هذا، ويبدو أنه قائد مجموعته.

أحد القراصنة صعد إلى السفينة، هكذا تحدثت عبر جهاز الراديو وشاهدت هذا القرصان بلا سلاح، وبعد ثوانٍ كان يسحب حبلًا أصفر اللون وفي آخره دلو أبيض بداخله سلاح بينما القرصان الثاني يتسلم السلم.

انطلقت بسرعة إلى مكان الصواريخ النارية وحاولت إحضار بعضها، وإذا بي أجد نفسي على مرمى رؤية القرصان، وظننته غير مسلح لكن خلال ثوانٍ بدأ يطلق النار ناحيتي.

أطلقت عليه أحد الصواريخ النارية، لكنه تفاداه ولم يصبه وسقط في المياه، القرصان الثاني صعد إلى السفينة، والأول اختفى، لا بد أنه اختبأ في مكانٍ ما، فأنا أعلم أن هدفهم الأساسي هو السيطرة

على مركز قيادة السفينة، قلت عبر الراديو: "اثنان من القراصنة على السفينة الآن."

كان كل خوفي هو أن يتم السطو على مركز القيادة، ففكرت في أن أدخله وأغلق الأبواب من الداخل، فمركز القيادة لأي قبطانٍ هو كل شيءٍ، وفكرت أيضًا أن أترك لهم مركز القيادة وأختبئ في مكانٍ آمن لحين وصول أي سفينةٍ لإنقاذنا.

أطلقت صاروخًا ناريًّا تجاه القرصان الثاني، الذي كان يبدو نحيلًا ويرتدي قميصًا قذرًا وسروالًا وحذاءً من المطاط، وكان جالسًا على السطح يضع ساقًا فوق الأخرى، وبدأ يطلق رصاصاته في كل اتجاه من بندقيةٍ آلية سريعة الطلقات.

بعدها اكتشفت أن القرصان الأول الذي ظننته مختبئًا، كان يقوم بفتح جميع الأبواب التي سبق وأغلقناها بأقفال، فكان يطلق النيران على الأقفال، فتكسر ويفتح الباب بكل سهولة.

كان القراصنة يعلمون أننا لسنا مسلحين.. اتجهت ناحية قمرة القيادة ودخلتها وشاهدت أحد البحارة مكومًا بجوار الحائط وهو يرتجف مصابًا بالهلع، ثم بدأت أتحدث معه لأطمئن، لكن فجأة شاهدت ما جعلني أتوقف عن الكلام، كان أحد القراصنة يقف خلف الباب الزجاجي لقمرة القيادة مشهرًا بندقيته ناحيتي من خلف الزجاج.

الفصل التاسع

اليوم الأول، الساعة 7.35 صباحًا

بمجرد أن أدرت وجهي، بـــدأ الصومالي بإطلاق بضع طلقات في الهواء، وكان صوت الطلقات مخيفًـــا ومرتفعًا أكثر من الصوت الذي ينطلق عندما كان في الزورق الصغير..

ســـمعت واحدًا من الطاقم يقول: "إحنا اتبهدلنا".. قال القرصان بصوتٍ عالٍ: "اهدأ يا كابتن.. اهدأ."

كان قصيرًا نحيفًا وقذر المظهر، ذو شعرٍ يشبه كومة سلك.

"شغل.. شغل.. أوقف المحركات."

هكذا أضاف.

كنت ما زلت في حالة صدمة ولم أســـتطع الرد عليه.. لم أتخيل أن ينتهي الموقف لصالحهم بهذه السرعة.

كانت الساعة تشير إلى 7.35 صباحًا، واستغرق القرصان 5 دقائق على السفينة، ليستولوا على مركز قيادة السفينة.

ما زال جهاز الراديو في يدي، أدرت ظهري إلى القرصان، وبصوتٍ منخفض ضغطت على زر التحدث وقلت: "القراصنة في مركز القيادة.. القراصنة في مركز القيادة."

وكنت أقصد أن يســـمعني كبير المهندسين حيث كان مختبئًا في حجرة القيادة، والمهندس الأول والثاني في حجرة خلف مركز القيادة، قال القرصان موجهًا بندقيته نحو صدري: "نحن لسنا القاعدة.. إنها مجرد صفقة، نحن نريد المال، أوقف السفينة."

كان يتحدث إليَّ وهو على بعد 12 قدمًا، قلت: "حسنًا، حسنًا.. هذا يســـتغرق وقتًا، حاول أن تهدأ، كي نوقف السفينة علينا أن نفعل هذا بالتدريج من خلال برنامج خاص بذلك."

وبدأت بالفعل في تقليل سرعة السفينة.

بعدها انطلقت صافرة عالية من جرس الهاتف الذي اخترق الصمت المخيـــم حولنا، كنت أتمنى أن يكون المتحـــدث أحد أفراد الإنقاذ من غرفة التجارة البريطانية البحرية، كنت أعلم جيدًا أنهم لن يســـتطيعوا سحب السفينة إلى الساحل الصومالي، وهذا يعني أن التفاوض سيتم هنا فوق ظهر (ماريسك ألاباما).

تحدثت في الراديو: "أوقفوا المحركات" ثم تركت إصبعي على زر التحدث كي يســـمع الجميع ما يدور حولنا في مركز القيادة، شعرت بتوقف الســـفينة فكانت تنحدر على المياه بشـــكلٍ دائري، وهذا كان يغضب القرصان حيث قال لي: "أوقف هذا الدوران" قلت: "حســـنًا،

ليس هناك مشـــكلة".. بدأت في التحكم في عجلة القيادة وبالطبع لم يحدث أي شيءٍ حيث كان مساعد المهندس (مات) هو من كان يتحكم في القيادة من أسفل.

صرخت قائـــلًا للقرصان: "الســـفينة معطلة، هنـــاك عطل في الســـفينة".. جاء نحوي ينظر، فحركت عجلـــة القيادة أمامه وجعلته يشـــاهد أنه لا يحدث شـــيء حين أحركها.. حيث كانت السيطرة تتم من أسفل بيد مســـاعد المهندس، صرخ قائلًا: "ماذا؟.. اضبط اتجاه السفينة للأمام."

قلت له: "أتمنى ذلك، لكنك أصبت السفينة وتعطلت" ثم بدأت أشرح له أن المؤشرات لا تعمل ولا نستطيع التحكم في السفينة، هناك عطل وبالطبع لم يعجب كلامي القرصان وكرر ثانية: "أوقف السفينة."

تحركت حول بعـــض الأجهزة لإطفائها، أطفـــأت خراطيم المياه وجميع صافرات الإنذار حيث لم نعد بحاجةٍ إليهم..

بدأ القرصان ينظر في شاشة الرادار ويبدو عليه أنه لا يفهم شيئًا، للرادار ثلاثة أزرار؛ واحد يتحكم في درجة ظهور البيانات والمعلومات، فقمت بإطفاء هذا الزر وأخفضته للصفر كي لا يعطي أي قراءة، وزر آخر يتحكم فـــي أحوال الطقس والمطر والعوامل الجوية، فرفعت هذا الزر إلى الوضـــع الأقصى، حيث أنه ربما تكـــون هناك حرب خارج السفينة ولكن الرادار لا يعطي أي قراءة..

ثـــم ذهبت إلى جهاز الراديو وغيرت الموجـــة والقناة من رقم 16 إلى 72، جاء أحد البحارة وخلفـــه ثلاثة من القراصنة؛ أحدهم طويل القامة وكان يطلق النيران نحوي من قبل، والآخر يبدو عليه الهدوء أكثر واسمه (فوســـو).. وكان يحمل بندقية آلية في يده ويبدو وكأنه ذاهب للحرب ضد رامبو، ويعرج بعض الشـــيء، يبدو أنه قد جرحت ساقه أثناء صعوده وقفزه على السلم، والثالث كان شابًّا صغير السن وما زال في مرحلة الدراسة.

والطويل هو من يقود بقية المجموعة، أعمارهم تتراوح بين 22 – 28 عامًا، وكانوا محملين بأســـلحةٍ سريعة الطلقات، وحول أجسامهم الأحزمـــة الحاملة للطلقات، ومع أحدهم مســـدس حديث أيضًا وعليه شعار البحرية الأمريكية.

كان يبدو عليهم بعض الخبرات الضعيفة في كيفية عمل الســـفن، طلبوا من أحد البحارة ومساعده الثالث، الجلوس أرضًا بجوار السطح، تقـــدم نحوي أحدهم قائلًا: "هؤلاء القراصنـــة، مجانين، فالأفضل أن تطيعهم، أنا مجرد مترجم، أعمل معهم."

نظـــرت إليه، وبالطبع لم أكن أصدقه، لقـــد حاول أن يبني بعض جسور الثقة ناحيته...

بعدها قال قائدهم: "اتصل بباقي طاقم الســـفينة" كنت أعرف أن هذه اللحظة ســـتأتي، حيث كلما زاد عدد المختطفين، زادت معه قيمة الفدية ويحصلون على مبالغ طائلة من (ماريسك).

بعدها بدأت أتحدث في الراديـــو: "على كل الطاقم أن يحضر إلى منطقة القيادة."

وكنـــت أدعو الله، أن يبقى كل فرد في مكانه.. وكان القائد يتحدث مع مجموعته بصوتٍ عالٍ وبأســـلوب أمر.. ضغطت زر الراديو وقلت بصوتٍ خافت: "4 قراصنة على الســـفينة، اثنـــان على جناح منطقة القيادة؛ وواحد خارج منطقـــة القيادة، وآخر داخل منطقة القيادة".. بعدها نظر القائد إليَّ وقال: "اتصل بهم مـــرة ثانية".. قلت ما فعله سابقًا والحمد لله لم يحدث شيء ولا حراك في أي مكان.

حاولت أن أكســـب بعض الوقت وأفتح أي موضوعٍ للنقاش، فقط لإطالة الوقت، ربما يحدث ما يكون في صالحنا أو يتم إنقاذنا.

نظـــرت إلى القائد قائـــلًا: "ربما يحتاج أصدقـــاؤك بعض الماء للشرب."

أومأ برأسه، وطلبت أحد البحارة، نهض من مكانه وسار إلى مكان تواجد المياه وكان أحد القراصنة يراقبه وهو يتحرك، وبينما أنا أدعي محاولة إصلاح الرادار، نظرت إلى قائدهم قائلًا: "هل معكم سجائر؟ هنا يوجد سجائر إذا نفدت سجائركم" أومأ برأسه أي (نعم).. توجهت إلـــى إحدى الطاولات وأخذت بعض صناديق الســـجائر التي دائمًا ما كنت أستعين بها لأعطيها لرجال السلطات في الميناء كي يسهل مهمة تواجدنا في الميناء، حيث كنت أعرف أهمية الســـجائر الأمريكية في القارة الأفريقية، بدأت حالة التوتـــر بين الجميع في الانحدار وأصبح الجو مقبولًا أكثر من ذي قبل.

أشـــعل القائد سيجارة ونفث دخانها باســـتمتاع ثم توجه نحوي بالكلام قائلًا:

ما الجنسية؟

قلت:

أنا أم السفينة؟.. ماذا تقصد؟

قال:

السفينة.. السفينة.. ما جنسيتها؟

قلت:

أمريكية.

بدأت عيناه تلمعان، والرجال الآخرون، أصدروا صوتًا يعني الفرح، أعتقد أنهم حصلوا على شيءٍ مهم للغاية.

قال قائد القراصنة:

ماذا عن الطاقم.. ما جنسيتهم؟

قلت:

- جنسيات مختلفة؛ أمريكيون، كنديون، أفريقيون.

الآن أصبح مزاجهم في حالةٍ أفضل، سجائر، محادثة مثمرة، وبعض الضحكات، عرفت غرفة البحرية البريطانية، أننا تم اختطافنا، وأخذت أعد في عقلي المدة التي من الممكن أن يستغرقونها للوصول لإنقاذنا..

طلب القائد مرة أخرى أن أوقف الســـفينة، وكان في حالةٍ عصبية، تمسكت بنفس الإجابة:

السفينة معطلة.

لا بد أنكم تسببتم في هذا العطل.

وبدأ في النباح والصراخ:

أوقف السفينة.. الآن.

رفعت حاجبي وتظاهرت أنني لا أفهم ما يريد، وقلت له:

هل تقصد أن توقف المحركات؟

سمعت صوتًا يأتي من خلفي، كان (كولين) الذي قال:

لا تعطيه حجة لقتلنا.

ابتسمت قائلًا:

- حسنًا.. حسنًا.

أرادوا شيئًا آخر، هاتفًا محمولًا، حيث قال:

أريد أن أتحدث في الهاتف.

قلت له:

ماذا؟.. ماذا تريد أن تفعل؟

قال (كولين) بصوتٍ عالٍ:

إنه يريد أن يجري مكالمة.

لم يفهم (كولين) ما كنت أحاول فعله، حيث ظن أنني سأتسبب في قتله وقتلي معه، تكلمت بصوتٍ خافت بجانب فمي:

نعم أفهم، فقط اهدأ، دعني أتصرف معهم.

أخيرًا أشار القائد إلى الهاتف المتصل بالقمر الصناعي، وأعطاني الرقم الذي أطلبه، كان كود البلد هو الصومال، ظننت أنه يتصل بالسفينة الأم لأخذ تعليمات، راقبني القائد حيث مشيت نحو الهاتف، طلبت الرقم وانتظرت، يظهر الرقم بمجرد أن تضغط الأزرار، لذا لا مجال أن تخطئ في طلب الرقم، لكنني لم أتمم آخر خطوة، في أغلب الهواتف المتصلة بالقمر الصناعي، يجب أن تضغط على زر بعد طلب الرقم وهذا الزر يقوم بتمرير المكالمة، لم أضغط زر تمرير المكالمة وأظهرت للقائد على شاشة الهاتف أنني طلبت الرقم الصحيح، لكن الهاتف لا يعمل، أتى وهم في حالة غيظٍ شديد:

دعني أرى.

أشرت إلى الشاشة والرقم الذي أعطاني إياه فيها، لكن المكالمة لم تتم.

قلت له:

هاتف سيئ.. لا يوجد إشارة في هذا المكان.

أعطوني رقمًا آخر لأطلبه، ربما رئيسهم الذي يعملون لديه في سواحل الصومال حيث أرادوا أن يخبروه أنهم اختطفوا سفينة أمريكية حيث يحدد قيمة الفدية، وربما يجرون اتصالًا بشركة (ميرسك) للتفاوض معهم من هناك عن تفاصيل دفع الفدية، المبلغ، وكيفية تسليم الأموال.

طلبت الرقم أكثر من مرة، والقائد يفتح عينيه ويحدق بي ويراقب إن كنت أطلب الرقم الصحيح أم لا.

ثم قال لي:

رادار.

أجبته:

ماذا؟ عفوًا؟

أشار إليَّ بالبندقية كي أسير أمامه، سرت وهو خلفي إلى أن وصلت قرب الرادار، فأوقفني ونظر إلى شاشـــة الرادار، كانت خالية من أي شيءٍ وتبدو معطلة.

وقال لي:

72.. ميزان 72 ميلًا.

أراد أن يوسع مدى عمل الرادار، يبدو أنه يعلم القليل عن كيفية عمل الرادار والملاحة، وبهذا تأكدت أن هذا القائد ليس صيادًا كما يدعون.. هذا الرجـــل قد حصل على بعض التدريب، قمت بتحريك الزر الخاص بمدى اتساع عمل الرادار وحركته إلى (96 ميلًا) وقلت له:

انظر.. لا شيء.

كان في حيرةٍ شديدة وقال:

أين هذا؟.. ماذا يظهر هناك؟

وهو يشير إلى شاشة الرادار، حيث كان يبحث عن السفينة الأم على الرادار، والآن أيقن أنه عليه أن يتصرف وحيدًا بدون دعمٍ من السفينة الأم وبدون عمل مكالمة لرئيســـه ليخبره بالتعليمات، وما هي الخطوة القادمة.

قلت له مشيرًا إلى شاشة الرادار:

ليس هناك أي شيء.

بدأ الثلاثـــة الكبار من القراصنـــة، التحدث فيمـــا بينهم باللغة الصومالية، فأعطيتهم ظهري ورفعت الصوت في جهاز الراديو، لسببٍ ما، دعوني أحتفظ بجهاز الراديو ولم يأخذوه مني، ربما أحتاجه لطلب بقية الطاقم للصعود إلى قمرة القيـــادة لاحتجازهم جميعًا في مكانٍ واحد.

تعمدت أن يكون الجهاز ظاهرًا أمامهم ولا أخفيه لإثبات حسن نيتي أنني لا أخفي شـــيئًا، أيضًا كي يعتادوا على وجوده معي.. تحدثت إلى جهاز الراديو وهو في يدي دون أن أرفعه إلى فمي، فلا يلحظ أحد أنني أتحدث إلى الراديو وقلت:

- أربعة في قمرة القيادة.. ليس هنا من وجودٍ للسفينة الأم حولنا.

قام (كولين) بمناداتي حيث كان يقف بعيدًا:

كابتن.

سرت إليه حيث كان يتصبب عرقًا، لم أعرف سبب التعرق، هل من حرارة الجو أم من الخوف؟ فقال لي:

كابتن.. فقط أعطهم الأموال.

نظرت حولي وتمنيت ألا يكون قد سمعه أحد من القراصنة، فقد جرت العادة أن كل قبطان يصنع عهده من الأموال في خزينة في قمرة القيادة لشراء أي مستلزمات، وللطوارئ كان لدينا في الخزينة 30.000 دولار.

فقلت:

- كولين.. إنهم يريدون أكثر من ثلاثين ألف دولار.

قال:

- فقط أعطِ هذا المبلغ لهم.

أردت أن أهدئ من روع (كولين) خاصة أن كان أكثر الأفراد قلقًا منذ الصباح، لم أشأ أن تنتابه حالة عصبية، جميعنا خائفين لكن نحاول التماسك، فالخوف يعني الضعف، والضعف يعني عدم القدرة على التفكير السليم، وهذا ما لا نريده الآن في هذه الظروف.

قلت له:

- إنه أحد الأوراق، لقد أعطيتهم سجائر، سنترك أمر المال لوقتٍ لاحق، ربما نتفاوض به.

بالطبع لم أكن أهتم بالاحتفاظ بالمال، لكنني كنت أحاول كسب الوقت واستغلال جميع الأوراق في يدي قدر الإمكان.

فقال:

- أعتقد أنه من الأفضل أن تعطيها لهم وإن لم يطلبوها.

سرت بعيدًا عنه، ذهب القائد لاستخدام الراديو على موجة (V.H.F) والذي لها تردد عالٍ للغاية والتي تسمح لك للتحدث لأي شخصٍ من الأفق إلى الأفق وله مدى من 15 إلى 20 ميلًا، وعادةً يتم ضبطها على قناة 16 والجميع يستطيع أن يلتقط هذه الموجة، لكنني غيرت الموجة إلى قناة 72 حيث لا يلتقطها ولا يسمعها أحد، لذا دعهم يحادثون كوكب القمر، كنت أراقب قائد القراصنة، فالجميع يلمح إليه وهو صار كالمجنون حيث لا يستطيع الاتصال بأحد، وقد حاولت حسن معاملته والتقرب منه كي أستطيع أن أعرف ما هي الخطوة القادمة.

الفصل العاشر

اليوم الأول، الساعة 9.55 صباحًا

ازدادت درجة الحرارة في قمرة القيادة، حيث تصل درجة الحرارة فـــي خليج عدن إلى أكثر من 37 درجة مئويـــة، وكنت أعلم أننا قريبًا جدًّا سنشعر بجفاف بسبب الحر الشديد داخل القمرة التي لا يدخلها هواء، والآن القراصنة يغلقون الباب ونحن في الداخل، سألني قائدهم مرة أخرى:

أين أفراد طاقم العمل؟

قلت:

ليس لدي أدنى فكرة عن مكانهم، أنا هناك معك منذ فترة.

صرخ بصوتٍ عالٍ:

أحضرهم هنا حالًا، لديك دقيقتان، وإذا لم تستجب فسيقتلك هؤلاء.

وأشار إلى زملائه.

بعدها أتى اثنان من القراصنة وصوبا بندقيتيهما إلى كبير البحارة، إلى رأسه وإلى رأس (كولين).. وكانا يصرخان بأصواتٍ عالية، قائلين:

– هل تريد أن تموت؟ دقيقتان وبعدها سنقتلك.

قلت:

– اهدأ.. اهدأ.. أنا سأفعل كل ما بوسعي.

قام طويل القامة الصومالي، وصوب البندقية إلى بطني وقال:

دقيقة!

بعدها أضاف القائد:

ألم أقل لك.. إنهم مجرمون ولا يتورعون عن عمل أي شيء.

بعدها تحدثت في الراديو قائلًا:

– إلى كل الطاقم، عليكم أن تحضـــروا إلى هنا، القراصنة تريد أن يكون كل فردٍ هنا الآن.

نظر لي قائد القراصنة، فقلت له:

– هل من الممكن أن توقف أصحابك عن تصويب البنادق لنا، ربما يصاب أحدنا.

نظر إليَّ بعينين زائغتين، وقال:

أنا صومالي فقير، لكنني أنصحك أن تحضر جميع رجالك هنا الآن.

ثم قال طويل القامة:

دقيقة واحدة وبعدها نقتل الجميع هنا.

رفعت يدي محاولًا إيقافه، وقلبي يدق بشدة:

اهدأ.. اهدأ.

وأخذت أفكر؛ هل من الممكن أن أتسبب في قتل أحد الرجلين هنا؛ (كبير البحارة) و(كولين).. إذا قتلوا واحدًا فلن يترددوا في قتل كل من يقابلونه في السفينة، تحدثت في الراديو قائلًا:

– القراصنة يهددوننا بالقتل، يريدون الجميع هنا الآن.

"ثلاثون ثانية."

قال (موسو) وهو يصرخ:

– هل تسمعني؟ ثلاثون دقيقة ونموت بعدها.

توجه (موســـو) وطويل القامة ناحية الرجليـــن؛ (كبير البحارة) و(كولين).

أصيب الرجلان بالهلع والخوف الشـــديد، بعدها ذهب (موســـو) وأوقف طويل القامة عن تصويـــب بندقيته إلى الرجلين، وأبعده قليلًا بعد أن دفعه في صدره ثم قال لي:

– قراصنة خطر.. أحضر الجميع هنا.

قلت بصوتٍ صارم:

– ماذا عليَّ أن أفعل أكثر من ذلك؟

قال:

– أحضر الجميع وإلا سنقوم بتفجير السفينة.

نظرت إليه بدهشة:

– هل قلت ستفجر السفينة؟

قال:

نعم، نحن نحمل معنا قنبلة، وســـنفجر السفينة بالكامل في خلال 30 ثانية.

لم أصدقهم حيث شاهدتهم وهم يصعدون إلى السفينة.. ولم يكن معهم إلا البنادق، نظرت تجاه الخارج، شاهدت القرصان صغير السن ينظر إليَّ ويبتسم ابتسامة بها تشفي، يبدو أنه كان سعيدًا بكل تهديدات القائد لي، مر بعض الوقت ولم يحدث شيء أو ينفذوا تهديدهم، شعرت ببعض الراحة أن كل ما قالوه، مجرد تهديد.

كنت أتحرك لإيقاف بعض صافرات الإنذار التي كانت تنطلق بشكلٍ أوتوماتيكـــي، وبين الحين والآخر أتحدث فـــي الراديو لأطلع زملائي المختبئين علـــى آخر التطورات، كانت لدي فكـــرة عن أماكن اختباء الطاقـــم، والدقائق تمر بطيئة، عاد قائد القراصنة (موســـو) وطويل القامة لجنونهما، وبدأت الأســـئلة مرة ثانية أو ثالثة عن مكان اختباء الطاقم، كان (كولين) وصرخ قائلًا:

دقيقتان.. أخرج الطاقم الآن، الجميع غاضب.

ثم صرخ الطويل بصوتٍ عالٍ:

– الطاقم هنا الآن.

كنت أفكر، لا تســـتطيع أن تماطل كثيرًا أو تستخدم نفس الخدمة مرة أخرى، حيث لن يكون لها أي تأثير، لكن إذا أراد أحد هؤلاء الرجال

قتلـــي أو قتل أحدٍ منا، لما ترددوا كل هذا الوقت، لكن لا يجب أن أكون مطمئنًا إليهم، فالطلقة تخرج من ضغطة واحدة على الزناد.

بدأ الصومالي العد:

دقيقتان.. دقيقة ونصف...

شاهدت (كولين) يتكوم أرضًا أكثر ويضع يديه على رأسه وأذنيه، وبدأت دقات قلبي تتسارع، وبعد انتهاء العد وانتهاء المهلة، لم يحدث شيء وكانا ينظران إليَّ في غضبٍ شديد، وبدأت أشعر أن الأمر بالنسبة لهم ليس إلا حـــرب أعصاب، فهم مجرد مجموعة من القتلة النصابين، مجرد بيزنس، وفجأة سمعت صوت طرق على الباب الزجاجي لغرفة القيادة، كان أحد القراصنة ومعه أحد رجالنا، زاد الطرق، لم يســـمع القراصنة لانشغالهم بإرهابنا، وبعدها التفت (موسو) فقلت له:

تريدني أن أفتح؟

فأومأ برأسه.

ذهبت لأفتح الباب الجرار، كان أحد البحارة، قلت له:

ادخل، واجلس بجوار (كولين) ورئيس البحارة.

بعدها قال لي قائدهم:

أريد أن أتجول في السفينة.. تعال معي.

ضغطت زر الراديو كي يسمعني الآخرون وبدأت في الحديث:

– هل تريد مني أن أتجول معك في السفينة؟ حسنًا.. هيا بنا، دعنا نبدأ بالسطح E هذا مناسب للبحث عن البحارة.

خرجت من باب غرفة القيادة ويسير خلفي القائد، كنت أشير إليه نحو اتجاه السير وهو يتبعني، سفينة بحجم (ماريسك ألاباما) ضخمة للغاية بها أماكن كثيرة وحجرات، فهي تشبه ناطحة سحابٍ نائمة على المياه.

كنت أفكر كيف أبتعد عن أماكن اختباء الطاقم، كنت أشعر وكأنني ألعب شطرنج ضد قائد القراصنة، أقوم بحركةٍ وهو يقوم بحركة.

وكان عليَّ قبل أن أحرك أي شيءٍ أن أفكر في الخطوة التي يخطوها، وماذا يريد من ورائها! تمامًا مثل لاعب الشطرنج.

عندمـــا ذهب القائد خلفي، ترك بندقيته مع طويل القامة، فهو الآن غير مسلح، وحوالي 5 أقدام و9 بوصة طول، ويزن حوالي 135 رطلًا.. ولا يزال صغيرًا في السن، كان من الممكن ضربه والسيطرة عليه، لكن ماذا يمكن أن نفعل بعد ذلك؟!

وبينما نحن نمشي، نبح القائد بصوتٍ خشن:

افتح هذه الحجرة.

فهذه المناطق فيها حجرتي، وحجرة كبير المهندســـين، والآن لا يوجد أحـــد بالحجرتين، أخذت مفتاحي ووضعتـــه في قفل الباب ثم فتحته، دخل القائـــد إلى الحجرة، كان هناك ســـرير وتلفاز وبعض الملابس ملقاة على السرير ومكتب وكرسي، فلم يكن المكان مرتبًا.

خرجنا ومشـــينا في دهليز طويل، كنت أخشـــى أن يرى أحدًا من الطاقم في طريقنا، فأتعمد أن أحدثه بصوتٍ عالٍ وأنا أســـير راضيًا،

تصيبني الكحة المصطنعة كي يسمعني أحد من الطاقم إذا كان قريبًا، فيعلم أنني لست وحدي وهناك من هو خطر قادم إليهم.

كنت خائفًا للغاية وقلبي يدق بشدة خشية أن يظهر أحد من الطاقم فجأة، دخلت أماكن كثيرة، فتحت بابًا آخر ودعوت القرصان للدخول، أصدر صوتًا ظننته وجد أحد البحارة، دخلت مسرعًا لأشاهد، فإذا به ينظر إلي سجادة صلاة على الأرض وهناك ملصق على الحائط عليه سهم يشير إلى اتجاه (مكة).. قال القرصان:

مسلم.. مسلم.

بدا عليه السعادة والحيرة في الوقت ذاته، قلت له:

بالتأكيد.

فكانت هذه حجرة كبير البحارة، تراجعنا وسرنا في الدهليز الطويل مرة أخرى.

قلت له:

أنهينا السطح (C).. هل تريد الذهاب إلى (B)؟

أومأ برأسه أي (نعم).

قلت:

حسنًا.. هيا بنا.

عندما هبطنا طابقًا للأسفل.. بدأت أقلق أكثر، حيث كنت أعلم أننا متجهون بالقرب من حجرة المحركات والحجرة التي خلف حجرة القيادة، وهاتان الحجرتان يختبئ فيهما معظم الرجال.

حاولت التفكير في حيلة كي نتفادى دخول تلك الحجرات، ولكن المشكلة كانت أن تلك الحجرات مكتوب عليها من الخارج لافتة تشير إلى وظيفة كل حجرة، مثلًا؛ حجرة المحركات، الحجرة الخاصة بكبير المهندسين، حجرة الأجهزة الملاحية، هبطت إلى سطح (B).. كان هناك باب مغلق، فقلت له:

لا أحد هنا.

فقال آمرًا:

افتح.

وهو يشير إلى الباب.

ابتسمت، حاولت أن أبني جسور ثقة بيني وبينه كي يطمئن لما أقوله أو أفعله، حتى إذا أتيت إلى الغرفة التي بها بعض الرجال يثق بكلامي إذا قلت: "هذه الحجرة غير مهمة أو فارغة" فيصدقني.

فتحت له قفل الباب، دخل لينظر، لم يجد إلا أنواعًا كثيرة من أدوات إصلاح الأعطال، أومأ برأسه أن نستمر في طريقنا، وبعد عدة دقائق، حدث نفس الشيء، فتحت له غرفة أخرى، كان بها بعض الإمدادات التي نحتاجها، مثل: (الأوراق، والمناشف) وغير ذلك.. وعندما وصلنا إلى غرفة التحكم في المحركات، استخدمت مفتاحًا آخر غير المفتاح الحقيقي، وقلت أنني ليس معي المفتاح وأنها لا تفتح واستمررت في السير وأنا أقول أن بها بعض المواد المخزنة، نستعملها كمخزن، فلا نضيع وقتنا، قمنا بتغطية جميع أماكن السطح تقريبًا حيث كانوا

سبعة أماكن ثم عدنا إلى منطقة قيادة السفينة، مرة أخرى.. كان طويل القامة ما زال مقطبًا جبينه و(موسو) في حالة خيبةٍ ويأس.

بدأوا في الحديث فيما بينهم بالصومالي، وبدا القائد غير سعيد، أومأ برأسه إلى الرجال الثلاثة في قمرة القيادة: (كولين، والبحار، وكبير البحارة) أن الجميع بخير.

حاولت أن أضغط زر الراديو دون أن يلحظ أحد ما أفعله، نجحت في ذلك وتوجهت إلى شاشة الرادار وتظاهرت أنني أنظر بها وتحدثت بصوتٍ خافت للغاية قائلًا:

(شين).. ابدأ.

سمعته يتنفس الصعداء، ثم قال:

- أنا موجود في السطح (E).. أين القراصنة؟

نظرت حولي، الأربعة تحركوا في مواقع مختلفة، واحد على كل جناح، والقائد معنا في غرفة القيادة، وصغير السن عند المقدمة، شرحت هذا لـ (شين) بينما كنت أتظاهر أنني أضغط على أزرار في أجهزة الملاحة، كان (شين) من الرجال المجتهدين الذين يمكن الاعتماد عليهم، لكن مهاجمة القراصنة لم تكن فكرة جيدة، حيث قال (شين) وهو ما زال معي على الراديو:

أعتقد أنه من الممكن الهجوم عليهم.

قلت له هامسًا:

لا.. لا.. سلبي، القراصنة منتشرون ومسلحون، لا تفعل هذا.

صرخ (موسو) من خارج حجرة القيادة، أسرع القائد إلى باب الحجرة وطأطأ برأسه، يبدو أنه كان يسمع منه شيئًا، فقلت في الراديو:

شين.. يبدو أن أحدهم قد سمعك.. ابق هادئًا. فقال:

حسنًا، سأفعل.

ساعتان مرتا علينا منذ بداية هذا الوضع الصعب، حاول القائد، عندي مكالمة هاتفية للصومال، نظرت خارج الزجاج الجانبي لقمرة القيادة، شاهدت شيئًا أبيض اللون يطفو على الماء.. ما هذا؟.. ربما يكون حطام سفينة أو بعض الأشياء التي تسقط من على ظهر السفن وقت العواصف، إنها تبدو مثل الزورق الذي استقله القراصنة خلفنا، ثم صعدوا منه إلى السفينة عن طريق السلم الذي علقوه على جانبي السفينة، ربما يكون هو ذاك الزورق، ولكن لماذا يبقى بجوارنا؟ هل من الممكن أن يكون القراصنة قد ربطوه بجانب السفينة قبل تسللهم إلى سطحها؟

مر بعض الوقت، وأصبحنا الآن في الظهيرة، ونفس الروتين ما زال ساريًا.. (كولين) والبحاران، يحتسيان المياه من وقتٍ لآخر نظرًا لحرارة الجو، وكان قائد القراصنة يتحرك بين الرادار والراديو، يحاول الوصول إلى أي شيءٍ، وأن يعثر على موقع السفينة الأم، ويقوم بالسعال ثم البصق من وقتٍ لآخر، وكنت أحاول أن أجد طريقًا لخروج الرجال الثلاثة من قمرة القيادة والانضمام إلى باقي الطاقم المختبئ، وهذا ليس بالأمر السهل، فإذا أعطيتهم الضوء الأخضر بالهروب من قمرة القيادة، ففي ثوانٍ سيقطع طريقهم القراصنة وتكون المشكلة

أكبر، وأفقد أي ثقةٍ اكتسبتها، سمعت قائد القراصنة يقول، وهو ممسكًا بجهاز الراديو:

- آه...

يا إلهي، ظننته يتحدث في الراديو، ويعلم كيف يعمل، لتحريك القناة إلى 72 القناة الآن على 16.. حيث تصل بين طاقم العمل في السفينة والعالم الخارجي، سمعت صوتًا يأتي من الراديو.. "نحن تم اختطافنا من قبل قراصنة، أكرر، أربعة قراصنة فوق السفينة".. حدق القائد بعينيه إلى جهاز الراديو، وكذلك أنا كنت مندهشًا تمامًا، أو كنت أدعي الاندهاش، إنه صوت (شين).. ماذا يفعل بحق السماء؟.. جاء رد الطرف الآخر الذي يحادثه (شين) قائلًا:

- سمعتك جيدًا، هناك سفينة حربية موجهة إليكم اسمها (يو اس اس فيرجينيا).. وتطلق الآن مروحية في طريقها إليكم.

أجاب (شين):

شكرًا (يو اس اس فيرجينيا).. متى تصل المروحية؟

هنا فقط ابتسمت حيث لا يوجد (يو اس اس فيرجينيا) على تردد الراديو، فالصوتان كانا (لشين).. لا بد أنه ذهب إلى حجرتي وحصل على جهاز راديو من هناك وفعل تمامًا مثلما فعله بالأمس، التظاهر أن هناك قوة قادمة لمساعدتنا، الآن أصبح قائد القراصنة في حيرةٍ حقيقية، أتى (موسو) ليتفقد ما يحدث، وقال قائد القراصنة:

من هذا؟

رفعت حاجبي:

لا أعلم، أنا هنا معك.

أتى الصوت من الراديو ثانيةً.. صوت (شين) قائلًا:

هنا مساعد القبطان، أكرر، يوجد هنا قراصنة على السفينة، اختطفوها.

قال القائد:

هل هذا مساعد القبطان؟

قلت:

صوت يشبهه.

جاء صوت (شين) مرة أخرى عبر الراديو:

أربعة قراصنة فوق السفينة، كلهم مسلحون، وكلهم في منطقة قمرة القيادة وحولها...

هكذا استمر (شين) بالتحدث متظاهرًا إلى سفينة حربية.

قال قائد القراصنة:

أين جهاز الراديو الثاني؟

وشاهدت خوفًا حقيقيًّا في عينيه حيث أنه آخر شيءٍ يتمناه القراصنة هو التفاوض أو الدخول في صدامٍ مع القوات البحرية الأمريكية، فهم يفضلون التفاهم مع أصحاب السفن التجارية فقط حيث ليس لديهم سفن حربية أو أسلحة موجهة.

فقلت له:

حســـب معلوماتي، هناك جهازان للراديـــو، والاثنان هنا في قمرة القيادة.

نظر إليَّ وكأن عقله كاد أن ينفجـــر، حيث انقلبت كل خططه في الاتجاه السيئ، الصوماليون سيطروا على السفينة، لكننا سيطرنا على الصوماليين ثم قال لي آمرًا:

لا بد أن تأخذ جولة أخرى في السفينة.

قلت:

حسبما تحب.

للمرة الثانية هو وأنا نســـير في الســـفينة، هبطنا إلى السطح E.. ثم سرنا عبر دهليز طويل إلى الســـطح الرئيسي، سرت عبر الدهليز الأقصر المظلم، وكانت الســـفينة هادئة تمامًا بلا صوت، حيث فصل المساعد (شـــين) من قبل كل المحركات والمولدات الكهربائية، حيث نسير في الظلام ومعنا كشافات تعمل بالبطارية، شاهدت باب حجرة المكيف مفتوحًا أمامي، وكنت أعلم أن القائد يريد أن يدخل إلى حجرة المكيف، ضغطت على زر الراديو دون أن يشعر، وقلت له بصوتٍ غير مسموع:

حسنًا، لندخل إلى حجرة أجهزة المكيفات، عليكم أن تغلقوا الباب.

وقفنا أمام حجرة المكيف، حيث بها كل أجهزة المكيفات التي تصل بالهواء البارد إلى جميع أنحاء السفينة، لكن الأجهزة متوقفة تمامًا ولا

تعمل.. لم أرغب في الدخول إلى تلك الحجرة إلا لو كان هناك اضطرار لذلك، خوفًا من أن يكون أحد هناك، ولم يســـمع رسالتي أو تعليماتي، قلت:

ندخل حجرة المحركات.

دخلنا.. الحجرة مظلمة.. صامتة إلا من بعض الدخان القليل الناجم عن العادم عندما كانت المحركات تعمل.. وكنا نسمع صوت نقاط مياه تتساقط من بعض الأنابيب، حاولت السير بين المحركات في الظلام، إلا أن قائد القراصنة قال:

لا.. لا.. دعنا نذهب من هنا.

تعجبت من هذا، استدار وخرج مسرعًا وأنا خلفه، استمرت الجولة، المكان صامت مظلم، لا حراك فيه.. فكنت أفتح أي بابٍ وأسأله إن كان يرغب في الدخول، فيرفض ونســـتكمل السير، لكنني كنت أترك الباب مفتوحًا حتى يســـهل انتقال أي عضوٍ في طاقم العمل إذا أراد التحرك بعد أن نغادر ذلك المكان، كنت أفكر في خدعة (شـــين) بالتحدث إلى الســـفينة الحربية التي أرســـلت مروحية لإنقاذنا وفكرت؛ ماذا كانت السفن في العصور القديمة عندما نتعرض للقرصنة؟ كنت أعرف أنه توجد حولنا بعض القطع الحربية، لكنهم لم يتحركوا ناحيتنا لأنه ليس هناك أي اتفاقية لإنقاذ الســـفن التجارية من قبل القوات البحرية لأي دولة، فلن يساعدنا، إلا نحن.. أنفسنا.

للمـــرة الثانية، لم نعثر على أحد، وكان واضحًا أن القائد بدت عليه علامات العصبية الشديدة، في كل حجرةٍ فتحناها، كانت هناك ملابس منثورة وكأن أحدًا كان يرتدي ملابســـه مسرعًا، أو أن هناك كوبًا من عصير البرتقال، ولم يتم شربه.. ذهبنا إلى المطبخ، وكان هناك سكين وبعضًا من شـــرائح الليمون، ويبدو أنها تم تقطيعها منذ دقائق قليلة، وعلى المقعد كان هناك وعاء قهوة يخرج منه بعض البخار.

بعدها سألني القائد:

أين كبير المهندسين؟

أجبت:

لا أدري.. هؤلاء الأفراد مجانين، من الممكن أن يكونوا في أي مكان.

دخلنا حجرة (كبير البحارة) وكنت قد لاحظت أن معظم القراصنة يرتدون في أرجلهم أحذية ذات إصبعٍ واحدٍ زهيدة الثمن، وكبير البحارة لديه في حجرته بعض (الصنادل) الجلدية الفاخرة الملقاة أرضًا.. كان قائد القراصنة ينظر إليهم بتمعن، ثم قال:

انظر إلى تلك الأحذية.

كان يبدو سؤاله كأنه يأخذ تصريحًا مني بأخذهم، قلت:

تفضل، كبير البحارة لن يمانع، حاول أن تقيس أحدهم.

قذف قائد القراصنة بالحذاء من قدمه، ثم وضع قدمه في (الصندل) وأومأ سعيدًا.

أكملنا الجولة وســـرنا تجاه الســـطح، كانت هناك طاولة طويلة و(بطانية) ملقاة عليها.. نظرت إلى (البطانية).. أنا متأكد أنها لم تكن موجودة في الجولة الســـابقة، عرفت فيما بعد أن هناك بعض الأجهزة على الطاولة، لذا قام (شـــين) بتغطيتها بـــ (البطانية) قبل دخولنا بلحظات، وأختبأ في الغرفة الجانبية وهي كانت المشـــفى الصغير، المخصص للعلاج من أي إصابة، فـــكان مختبئًا في تجويف المكتب حيث يوضع كرسي المكتب، دخلنا وكان (شين) يرى حذائي على بعد ثلاثة أقدام منه، فإذا اســـتطاع ذلك القائد العثور عليه، فسوف نكون فقدنا أهم وأذكى رجال الطاقم، لكنني لم أسمعه حتى يتنفس، مر الأمر على خير، اســـتكملنا السير وشاهدنا بعض الغرف وبعدها عدنا ثانية إلـــى غرفة القيادة، كان اختباء طاقم الســـفينة أمرًا هامًّا حيث يجعل القراصنة لا يشـــعرون بالأمان، وحتى إن قتلوا من بالقمرة الرئيسية، فســـوف يتبقى 16 رجلًا آخرين مختبئين ولا يتنبأ أحدٌ بما سيفعلون، كانت درجة حرارة السفينة لا تطاق ولا تحتمل، حيث أجهزة المكيفات لا تعمـــل وكذلك المراوح، فأصبح مجرد التنفـــس أمرًا صعبًا للغاية، وكذلك الحال على المختبئين، فليس هناك أي تيار هواءٍ على الإطلاق، ولا أدري كم من الوقت سيتحملون في مكانهم هذا، وأيضًا عدم شرب المياه، الخوف الذي شـــعرت به، عندما رأيت أول قرصان يهبط فوق السفينة، لم يفارق مخيلتي، لكنني كنت مشغولًا بأمورٍ أخرى، لذا لم أستســـلم لهذه الأفكار، وبالطبع كان الأمر أسوأ على الثلاثة في قمرة

القيـــادة: (كولين) و(رئيس البحارة) و(البحار).. حيث حرارة الجو لا تطاق وكذلك جلستهم على الأرض والبنادق حولهم.

عـــدت أنا وقائد القراصنة إلى قمرة القيـــادة، ودرجة الحرارة في ازدياد، وقد بدأت حيرة القراصنة في الازديـــاد.. (لماذا لا نجد أفراد الطاقم؟).. طلب قائد القراصنة التفتيش للمرة الثالثة، ودخلنا حجرة المحركات وحاولت أن أضع جسدي لأسد به فتحة الباب حيث شعرت أن هناك من يختبئ خلف الباب.. (موسو) وطويل القامة، أرادا الدخول في أماكن أكثر من قائدهما الذي كان كثيـــرًا ما يقول: (كفى).. على الاستمرار في دقة التفتيش.

لاحظـــت أن القراصنة كانوا يرهبون الظـــلام، على الرغم من أنهم مســـلحون لكن رأيت الخوف على وجوههم، ونحن نسير في الظلام وعلى ضوء الكشـــافات، وبينما نحن نســـير كانت هناك طاولة عليها بعض علب العصير وشرائح من البطيخ، رأيتهم ينظرون إلى البطيخ بنهـــم، عرضت عليهم أن يأخذوا ما يريدون مـــن قطع البطيخ وعلب العصير.. بدأوا في حمل بعضهم، عرضت عليهم المســـاعدة، فأشرت إلى (موســـو) أن يعطيني البندقية من يده كي يستطيع حمل الفاكهة والعصير، نظر إليَّ وابتســـم.. حملنا تلك الأقراص وعدنا أدراجنا إلى قمـــرة القيادة ونحن في طريقنا لقمرة القيـــادة، كانا الرجلان خلفي بمسافةٍ بعيدة وكنت أســـتطيع الهروب منهما والاختباء، لكنني فكرت في الثلاثة رجال الجالســـين على الأرض في قمرة القيادة، لذا طردت تلك الفكرة من رأسي.

حيـــث اعتدت أن أعضاء طاقم العمل تحكمنـــا علاقة مثل العائلة، بجانب أنني أحب أن أقوم بعملـــي ككابتن أو قبطان على أكمل وجه، وأنني أشـــعر أن كل فردٍ على السفينة هو مسؤول مني أو أنا مسؤول عنه.

عدنا إلـــى قمرة القيادة، وأخذا القرصانـــان موقعيهما من الاثنان الآخران وكانت الســـاعة قد تخطت الظهيرة.. كان القراصنة في حيرةٍ وإحساسٍ بعدم التصرف السليم وفقد القدرة على السيطرة، اختطفوا ســـفينة أمريكية، ولا يعلمون مكان اختباء الطاقم عليها وكانوا دائمي النقاش فيما بينهم باللغة الصومالية، أخذت زجاجة مياه ومســـحت رأســـي وجبهتي ببعض المياه ثم بدأت أتنفس بشـــكلٍ طبيعي، أخذ القائـــد الهاتف مرة أخرى ونبح في وجهي وأعطاني الرقم الذي أطلبه مرة أخرى، فأصبح هذا الأمر يتكرر كثيرًا كالأســـطوانة المشـــروخة، وصار الأمر على هذا النحو المتكرر.. التفتيش، محاولة إجراء مكالمة، التهديد.

لكن التهديد خفت حدته بعض الشيء عن ذي قبل.. وتوقف القائد عن النظر في شاشـــة الهاتف عندما كنت أطلب الرقم، فكنت أطلب أي أرقام وبعدها أضغط على علامة (الشباك).. فيعطي رد فعل كأن الرقم مشغول، فقلت له:

هذا الهاتف سيئ للغاية، كنت أتمنى أن يعمل الآن.

أحد أفـــراد الطاقم الجالس على الأرض في قمـــرة القيادة حاول الحديث مع أحد القراصنة، وكان هذا مخالفًا لتعليماتي وكل ما تدربنا عليه من قبل، فوجه حديثه إلى (موسو) قائلًا:

السلام عليكم.

وأومأ برأسه لـــــ (موسو).. نظر إليه (موسو) قائلًا:

أنا أفريقي.. نحن إخوة مسلمون.

نظر القراصنة إلى بعضهم البعض، وبدأ (موســـو) في الضحك، حاولت جذب انتباههم حيث كنت أخشـــى أن النقاش بعد ذلك يتحول لأن يقول لهم؛ أن عليهم ذبح أصحاب الديانات الأخرى، الغير مسلمة، ويأخذوا رؤوسهم إلى الصومال، لكن اختطاف السفن والسرقة وإرهاب الغير، أمر مشروع عندهم، نظر إليَّ قائد القراصنة قائلًا:

هيا نبحث مرة أخرى.. تفتيش.

كنت أتوقع سماع هذا في أي لحظة، لكنني قلت له:

لا.. هذا صعب للغاية، أنا متعب من كثرة السير والبحث.

أشرت إلى كبير البحارة وقلت:

- خذه معكم، هو يستطيع أن يصطحبكم في أرجاء السفينة.

كنت أعلم أن (كبير البحارة) يســـتطيع الهروب إذا كان في حراسة شـــخصٍ واحد فقط.. نظر القائد إلى كبيـــر البحارة وكأنه وافق على الفكرة، ثم قال:

- حسنًا، دعنا نذهب الآن.

وقف كبير البحارة وسار ناحيتي، بينما القائد كان يعطي تعليمات للقراصنة الآخريـــن باللغة الصومالية.. مر كبير البحارة بجواري وهو في طريقه، همست له:

إنه غير مسلح، خذه لبقية الطاقم.

لم أســـتطع رؤية وجهه، هل سمعني وسينفذ ما قلته أم لا؟ لكنني ساورني شعور أن الأمور ربما تتحسن لصالحنا.

الفصل الحادي عشر

اليوم الأول، الساعة 11.55 صباحًا

بدأ قائد البحارة وقائد القراصنة في التحرك لأخذ جولة والتفتيش والبحث عن باقي الطاقم، وأنـــا ذهبت لأوقف أصوات صافرات الإنذار التـــي تنطلق من آنٍ لآخر، وكنت أتمنى أن يســـتطيع قائد البحارة أن يغافل القرصان ويختبئ في مكانٍ ما، وكان بقية القراصنة يراقبونني وينظرون إلى الخارج لما يحدث حولنا في المحيط.

فجأة ســـمعت صوتًا متحدثًا في الراديو بعد مغادرة كبير البحارة وقائد القراصنة بحوالي 15 دقيقة:

انتباه.. انتباه.. أيها القراصنة.

تحركت بسرعة وأخفضت صوت الراديو لأقل درجة ووضعته على أذني كي أســـمع وحدي دون أن يسمع بقية القراصنة أي شيء.. كان صوت (مايك) كبير المهندسين وصوت صافرات الإنذار ما زال يضرب عاليًا، والقراصنة يصرخون بوجه بعضهم البعض.. قال (مايك) ثانية:

معنا قرصان، أكرر.. قبضنا على قرصان، معنا صاحبكم، ســـوف نبادله معكم بالقبطان.

ابتســـمت وقلت: "أخيـــرًا فعلناها، لكن ما زال مبكـــرًا للغاية أن نحتفل".. ثم ذهبت ثانية لأغلق صـــوت الإنذار، لم أرغب في مواجهة القراصنة الآن، أردت أن تســـير الأمور بشكلٍ بطيء، بعد مرور نصف الساعة، بدأ القلق ينتاب ويتسلل إلى القراصنة، جاء إليَّ طويل القامة داخل قمرة القيادة وأشهر بندقيته في وجهي، قائلًا:

أنت.. أين هو؟ أين رجلنا؟

قلت:

لا أعلم.. أنا هنا معك.

أحضر الرجل.

أشرت إلى جهاز الراديو قائلًا:

- ذبذبات كثيرة، وجود المعادن على الســـفينة تجعل من الصعب استخدام الراديو.

يبدو أنه لم يقتنع بكلامي، لكنه تركني وخرج إلى السطح مرة أخرى، مرت 15 دقيقة، وبعد نصف الساعة، شاهدت القراصنة يتحدثون مع بعضهم البعض بالصومالية، جاء طويل القامة مرة أخرى وقال:

- أين هم؟

قلت:

- أتمنى أن أعرف، يجب أن ترسل أحدكم ليتفقد الأمر.

فكر (موسو) فيما قلته ثم قال:

- حسنًا، أنت تذهب.

قلت له:

أنا متعب من كثرة السير، لمَ لا ترسل هذا الرجل القوي؟

وأشرت إلى (كولين).. أومأ (موسو).. أي موافق.

حسنًا، أيها الرجل الفتي، اذهب إلى الأسفل وابحث عنهم.

ابتسمت، وأصبح الآن اثنان تحت قبضة القراصنة.

بدأت أحقق ما أتمناه، أن أحرر الجميع من قبضة القراصنة إلا أنا، يمكن أن أظل معهم.

كان القرصان يراقب جيدًا، لذلك لـــم تحن لي الفرصة للكلام إلى (كولين) حين مر بجانبي للخروج من قمرة القيادة للبحث عن الآخرين، فقط تمنيت أن يذهب ويختبئ في مكانٍ آمن ولا يظهر ثانية، شـــعرت براحـــة بعد رحيل (كولين) وتحرره من قبضـــة القراصنة، كان لدينا جهاز على الســـفينة متصلًا بالأبواب، فتعرف عن طريق هذا الجهاز أي بابٍ مفتوح وأي بابٍ مغلق، حاولت مراقبة ذلك الجهاز لأعرف أين ســـيدخل (كولين) فعادةً يعطيني مكان الباب ضوءًا أخضر إذا فتح، وضوءًا أحمر إذا أغلق، فانتظرت لأرى أي بابٍ سوف يعطي الأخضر أي مفتوح، ثم الأحمر أي مغلق، وهذا معناه دخول (كولين) وإغلاق الباب على نفسه، فكنت أتمنى أن يجد (كولين) مكانًا آمنًا.. لا يستطيع أحد الوصول إليه، اعتقدت أنه سيذهب إلى الحجرة الخلفية لمركز القيادة،

ظللـــت أتتبع تحركاته من خلال كل بابٍ يفتـــح ثم يغلق، أخيرًا دخل حجرة مضخة إطفاء الحرائق، جيد إنه مكان صعب أن يكتشـــف فيه أحد، ظللت أراقب الشاشـــة، لم تكن هناك أي أضواء خضراء وتحولت إلى حمراء، هذا يعني أنه استتر واختبأ في هذا المكان، ابتسمت قائلًا لنفســـي: "ممتاز، ابعد مكانك".. والآن بقيت أنا وأحد البحارة تحت سيطرة القراصنة، مشيت إلى جانبه، نظر إليَّ فقلت له:

أعتقد أنه يجب أن تحدث فتحة في بـــاب غرفة القيادة، حاول أن تجلس قريبًا من الباب.

أومأ برأســـه، بعدها قام أحد القراصنة ومال برأســـه ناحيتنا ثم ابتعد.. قلت للبحار:

ابق على استعداد.

ضغطت على زر الراديو قائـــلًا: "ثلاثة قراصنة في قمرة القيادة، جميعهم مسلحون".. سمعت صافرة صغيرة تخرج من الراديو، نظرت إلى الشاشـــة فوجدت مؤشر البطارية منخفضًا للغاية، وهذا يعني أنه يجب أن يتم شحنه بالكهرباء.

بعد عدة أيام علمت ما حدث من أمر كبير البحارة وقائد القراصنة عندما ذهبا لتفتيش الســـفينة، حيث ســـار كبير البحارة وخلفه قائد القراصنة، تفقدا أكثر من مكانٍ بعدها ذهبا إلى حجرة المحركات، كان هناك كبير المهندسين (مايك) وكان المكان مظلمًا حالك الظلام، ودرجة الحرارة مرتفعة للغاية حيث بلغت 52 درجة مئوية، وكان هذا له تأثيره

الضار علينا حيث بدأنا نشعر أننا نموت، سمع (مايك) صوتًا قادمًا إلى حجرة المحركات، وكان يحمل سكينًا صغيرًا في يده، ليحمي نفسه إذا حدث شيء.. شاهد قائد القراصنة (مايك) وركض نحوه، ركض (مايك) بسرعة عبر الدهاليز وكبير القراصنة خلفه يصرخ كي يتوقف وإلا... انحدر (مايك) بزاوية 90 درجة واختبأ خلف حائط منتظرًا ذلك القرصان في الظلام، وظل يستمع إلى اقتراب صوت القرصان ومعه الكشاف، فكان يراقب الإضاءة والضوء الخارج من المصباح، وأيضًا اقتراب صوت صراخ القرصان، وحين اقترب القرصان ناحية الزاوية التي يختبئ خلفها (مايك).. انقض عليه وأمسكه من رقبته ثم وضع السكين عليها وقال: "كل ما عليَّ فعله هو أن أترك السكين يتحرك فوق رقبتك لقتلك." ثم قذفه (مايك) وأسقطه أرضًا.. لم يكن (مايك) يعلم أن هذا القرصان بمفرده، فقط ظن أن بقية القراصنة سيأتون خلفه ومعهم أسلحتهم وسيطلقون النيران عليه.. كانت يد القرصان الصومالي مقطوعة بالعرض من أثر احتكاكها بالسكين وينزف بشدة، قبض (مايك) وكبير البحارة على قائد القراصنة وقادوه إلى الحجرة التي خلف حجرة القيادة، طرقوا الباب ثم تكلم (مايك) من خلف الباب ليفتحوا له، أخيرًا شاهد قائد القراصنة، طاقم السفينة المختبئين، وعددهم خمسة عشر، لكن ليس بالطريقة التي تمناها، فهو الآن أسير بين أيديهم، بعدها تحدث (مايك) في الراديو كما سبق ذكره، أن قائد القراصنة بين أيديهم.

الشيء الجيد في كل ما يحدث، أننا نلعب لعبة القط والفأر مع القراصنة، والأمور لم تكن لصالحنا، لكن تحولت النتيجة كي تكون لصالحنا ونشاهد القراصنة خائفين، كنت أرى عيني طويل القامة وكأنهما ستخرجان من مكانهما، الفتى صغير السن كان عند الجناح على السطح، و(موسو) كان يرافقني ويراقبني في كل ما أقوم به، سألني (موسو) بإصرار:

أين هو؟

قلت:

اسمع، أنا لا أعلم، لكن الرجال من طاقمي مجانين ومتهورين وأنا لا أعلم فيما يفكرون الآن.

تظاهرت بالكابتن السفيه الذي لا يستطيع السيطرة على أفراد طاقمه، لكن كنت أعلم أن هناك حدودًا لهذا التظاهر.

قال (موسو):

وماذا عن الرجل الضخم؟ لماذا لم يعد؟

يقصد (كولين).. سمعته جيدًا وتوجهت للتحدث في الراديو: "إلى طاقم العمل، توجهوا إلى قمرة القيادة، وإلى (كولين).. عد إلى قمرة القيادة.

كانت حيرة وقلق الصوماليين تزداد.. دقيقة بعد دقيقة، وتحدث أحدهم بعصبية:

لماذا لا تعمل السفينة؟ أشعل المحركات.

توجهت للراديو الداخلي ثانية: "كبير المهندسين، أرجو أن تطيع وتذعن للقراصنة واحضر إلى قمرة القيادة."

كان طويل القامة و(موســـو) يكاد عقلهمـــا أن يذهب بعيدًا، وجد القراصنة جهاز راديو آخر بينما جهـــازي قد توقف عن العمل حيث فرغت طاقة البطارية به، ولا أعلم شـــيئًا عن (شين) وبقية المجموعة لمدة تقارب الثلاثين دقيقة حتى الآن.

شاهد القراصنة من خارج السفينة شيئًا ما، فسألني (موسو):

ما هذا القارب؟

أي قارب.. أين؟

إنه هناك.

وأشار إلى قارب إنقاذ معلق على السطح B)).

شـــرحت لهما، أنه قارب إنقـــاذ بمحركٍ خـــاص، وكل الإمدادات والمعدات اللازمة، فسألني ثانية:

هل هذا القارب يعمل؟

بالتأكيد، إنه يعمل.

لم أرد أن أقطـــع الأمل لديهم إذا أرادوا الفـــرار.. كنت أريدهم أن يأخذوا قارب النجاة ويتركوننا في سلام، قال (موسو):

- أريد أن أشاهده، أرني إياه.

خرجنا من باب قمـــرة القيادة وذهبنا إلى قـــارب النجاة باللون البرتقالـــي المضيء، كنت أتحدث بصوتٍ عالٍ وجهاز الراديو الذي مع القرصان، ضغطت على الزر بعـــد أن أخذته منه، كي أنبه بقية أفراد الطاقم أننا خارج قمرة القيادة وأننا على السطح B كان قارب الإنقاذ حوالي 18 قدمًا طولًا، وله تصميـــم مفتوح بدون غطاء، مصنوع من (الفايبر جلاس) وله محرك واحد وثلاثة صفوف كراســـي للجلوس، وكي تنزله إلى المياه، عليك أن ترفع ذراعًا جانبية للأعلى وللأســـفل عدة مرات حتى تتحرر من المكان المثبت به وتسقط على المياه..

دخلت إلى قارب الإنقاذ وشرحت لـــ (موسو) كيف تعمل.. بعدها سألني:

هل من الممكن أن نأخذه؟

كان القراصنـــة يريدون أن يجدوا مخرجًـــا ومهربًا إذا اضطرتهم الأمور لذلك.

قلت:

أكيد، يمكن أن آتي معكما لأساعدكما.

تحدث (موســـو) مع طويل القامة بالصومالي.. صدر صوت من جهاز الراديو الذي يحمله القراصنة الآن: " نحن نحتجز صاحبكم."

كان هذا صوت (مايك).. كبير المهندسين.

"هل تســـمعني أيها القرصان؟.. صاحبكم معنا، ومن الممكن أن نبادله بالقبطان."

ضغط طويل القامة على زر الراديو قائلًا:

من أنت؟

أجاب:

كبير المهندسين.

قال طويل القامة:

هل زميلي معكم.

قال (مايك):

- نعم، وسنبادله بالكابتن.

هـــذا العرض من (مايك) كبير المهندســـين، فتح حالة من الجدل والنقـــاش بين القراصنة، وبالطبع كان باللغـــة الصومالية، فلم أفهم ما يقولون لكن كنت أعرف أنهم يبحثون الأمر، ويشـــيرون إلى قارب الإنقاذ.

نظر إليَّ بعدها، طويل القامة قائلًا:

نريد أموالًا.. لا نستطيع المغادرة دون أموال.

أومأت برأسي قائلًا:

أفهم هذا، لدي الكثير من الأموال فـــي حجرتي، يمكن أن تحصل عليها إذا غادرت السفينة.

قال:

- كم عدد الأموال؟

قلت:

ثلاثون ألف دولار.

لـــم يبد عليهم الانبهـــار، حيث كانوا يرغبون فـــي الحصول على الملايين، كنت أظن أن هذه الأموال ربما تكون كافية لمغادرة السفينة، وإذا حصلوا علـــى رهينة فربما يفتح هذا، المجال للتفاوض على مبلغٍ كبير، وكان يبدو أنه من الممكن عقد صفقة.

ذهبنا عبر الســـطح E.. ثم إلى حجرتي، والذي لم أكن أعرفه، أن (شـــين) كاد أن يقبض عليه أثناء تجوله في السفينة وحاول الهروب واختبأ في حجرتي، وبينما دخلت أنا والرجلان غرفتي، كان (شـــين) مختبئًا في (الدولاب) على بعد عدة أقدام من ثلاثتنا، وقد أخبرني (شين) فيما بعد، أنني أنقذت حياتـــه، فتحت الخزينة في حجرتي، وأخرجت منها 30 ألف دولار ثم أعطيتها إلى (موســـو).. قام هو وطويل القامة بعدها، وأومأ كل منهما برأسه، بعدها تحدث القراصنة مع (مايك) عبر جهاز الراديو، واتفقوا على التبادل بيني وبين قائدهم في نفس الوقت، لم أكن جزءًا من الصفقة، مجرد تبادل، كنت مشـــغولًا بتجهيز كل ما يحتاجه القراصنة للمغادرة..

ذهبت ثانية إلى قارب الإنقاذ للتأكد من كل شيءٍ به وأنه يعمل، كان عليَّ فقط أن أرفع الذراع للأعلى والأسفل لنهبط على المياه من ارتفاع 40 قدمًا، بدأت في التجهيز، وكانا (موســـو) وطويل القامة بجواري مسلحين.

قال طويل القامة:

انتظر، نريد المزيد من الوقود.

قلت:

لماذا؟ الوقود الموجود يكفي كي نصل إلى الصومال.

قال (موسو):

وقود أكثر، يجب أن تنفذ.

قلت:

ما هي الكمية؟ كم تريد؟

الكثير، نحتاج إلى الكثير.

ذهبت إلى السطح حيث حجرة كبير البحارة وبها بعض المعدات التي أحتاجها لتزويدهم بالوقود.. وجدت (جركن بلاستيكي) بسعة 5 جالون، وبدأت في ملئه بالوقود، جاء إليَّ طويل القامة وبدأ ينظر إلى مولد الطوارئ ثم يدق بعض الأزرار في المولد، محاولًا تشغيله.

قلت له:

اترك هذا ودعنا نكمل ما نقوم به.

ابتسم ومضى من حيث أتى، وأكملت ما أقوم به من ملء (الجركن).. وقد اخترت هذا (الجركن) تحديدًا حيث كان من قبل مليء بالسموم والمواد الكيميائية، فإذا استخدموه في المحرك فسوف يعطل وتسد جميع الخراطيم وفتحاته على الفور.

ساعدني القراصنة في حمل (الجركن) ووضعه داخل قارب النجاة، أراد القراصنة أن أقوم بتعليمهم وتدريبهم على كيفية التحكم وقيادة قارب النجاة، وكنت سعيدًا بهذا فقط للخلاص منهم..

كان يبدو أن (موسو) وطويل القامة، يرغبان حقًّا في مغادرة السفينة، وقال لي (موسو):

– سنذهب، لكن 30 ألف دولار لن تكون كافية لتشتري لهم سيارة رباعية الدفع (مرسيدس) وقصرًا فاخرًا، لكن هذا المبلغ صعب أن يراه أي صومالي طيلة حياته، ليس سيئًا كي نحسبه ربح يومٍ واحد.

انقشعت الظهيرة وبدا الوقت متأخرًا، والقراصنة يماطلون..

قال (موسو):

أين هم المهندسون؟

إنهم متعبون للغاية.

كان يبدو على القراصنة شيء من الغباء وعدم الخبرة، وعدم معرفتهم بكيفية التعامل مع الرهائن والتفاوض، حيث كانت الأساسيات والبديهيات غائبة عنهم.

تقدم (موسو) نحوي قائلًا:

– هذا ما سنفعله، لكن أولًا نريد أن نسترد زميلنا.

قلت:

– مستحيل، لن تحصل عليه إلا وأنت في الماء.

قال:

- حسنًا.. حسنًا.

تظاهرت أنني أحكم غلق فتحة الوقود، وتحدثت من الراديو خافضًا صوتي.. قلت:

(مايك).. القراصنة جاهزون للذهاب بالقارب، سوف يتم التبادل بعد أن نكون في المياه.

رد (مايك) قائلًا:

(علم).

قلت له:

لا تقلق بشأني، فسأكون معهم، لكن بمجرد أن أنزل إلى المياه، أدر المحركات وانطلق من هذا المكان.

النجاح والنصر بالنسبة لي في هذه المرحلة، هو التخلص من القراصنة، وإنقاذ زملائي (طاقم السفينة).

الفصل الثاني عشر

اليوم الأول، الساعة 3.30 مساءً

تسارعت الأحداث بصورةٍ أكثر مما أتخيل، جاء الفتى القرصان الصغير وانضم إلى زملائه بجوار مركب الإنقاذ، شاهدت (شين) و(مايك) ينظران من فوق السطح العلوي، وكانت هذه مخاطرة غير محسوبة، حيث أنه كان من الممكن أن يشاهدهما أحد القراصنة ويطلق النار بشكلٍ عفوي لحماية نفسه.

بدأ (شين) ومعه (مايك) في إعطاء أوامر عبر جهاز الراديو..

كنت أخاف عليهما حيث هما الاثنان لديهما القدرة على الإبحار بالسفينة بعد أن أغادرها مع القراصنة..

قال (شين) من الطابق الأعلى وقد رأيت الخوف على وجهه، ليس على نفسه بل عليَّ أنا:

هاي، كابتن، هل أنت بخير؟

رفعت إصبعي بما يعني (نعم بخير) وقلت:

كل شيءٍ على ما يرام.

شـــعرت فعلًا أن الأزمة في طريقها للانفراج وأن الأدرينالين الذي هرب مني وغادرني أكثر من مرة.. بدأ مســـتواه يكون مســـتقرًّا، كان قارب النجاة جاهزًا للانطلاق، وشعرت بحاجةٍ لبعض العصير، تحدثت في الراديو إلى (مايك):

هاي (مايك).. لا بد أن نبدأ في التحرك وإلا سنبقى هنا حتى الظلام.

قال (مايك):

- علمت.. وسأنفذ.

بدأت أســـمع صوت محركات الســـفينة تعمل من جديد حيث عاد الجميع إلى العمل، كان القراصنة مجتمعين بجوار مركب الإنقاذ، قلت لهم:

-لا بد أن نتحرك في أقرب وقت.

تحدثت مع (مايك) عبر الراديو كي يكون جاهزًا لإنهاء آخر خطوة، وبعدها شـــعرت ببعض الحنين لأن أكون قائد السفينة، القبطان الذي يعطي الأوامر ويطاع، فبدأت في ممارســـة مهنتي الحقيقية وهوايتي القديمة.

صرخت بوجه (موسو) قائلًا:

تعالى هنا، قم بتشـــغيل ماكينة قارب الإنقاذ وتعامل برفق كي لا يكسر أي جزءٍ في الموتور.

ثم قلت للصبي الصغير:

ادخل إلى القارب كي تحافظ على التوازن.

ثم قلت لطويل القامة حيث كان يتحـــدث في الراديو إلى (مايك) كبير المهندسين:

- احضر إلى هنا وساعدنا في العمل، وإلا فلن نبحر.

سمعت (شين) يقول لباقي الطاقم:

إنه الكابتن يعطي أوامر للقراصنة.

وبدأوا في الضحك.

انقلب الحال، وصار الجميـــع يعمل بلا خوف أو تهديد أو اختباء، بعد مرور 40 دقيقة، كان قارب النجاة جاهزًا، ينتظر دفعة بســـيطة ليهبط إلى الماء.

قلت للقراصنة:

- ادخلوا إلى القارب وأنا خلفكم.

كان يجب أن أكون داخل قـــارب النجاة كي أقوم بالخطوة الأخيرة والتي تخلص قارب النجاة من التصاقه بالسفينة، ومن ثم الهبوط إلى المياه ليترك سطح (ألاباما).. كنت منذ دقائق قد فتحت نافذة في أعلى قارب النجاة وأدخلت حبلًا مربوطًا بالســـفينة كي أســـتطيع الهروب من قارب الإنقاذ، حيث أنه أثناء هبوطـــه إلى الماء، أخرج من الفتحة العلوية وأتعلق بالحبل لأصعد به ثانية إلى سطح السفينة، لكن كانت هناك مخاطرة كبيرة إذا لم تســـر الأمور كما يجب، وإلا ســـوف أقتل، جلس القراصنة على الكراسي وكان عليَّ أن أضغط على الذراع لينطلق

القارب ويهبط إلى المـــاء، حاولت أن أفكر في أفضل طريقة للخروج من فتحة الســـقف والتعلق بالحبل، أمام القراصنة، كان الأمر صعبًا للغاية...

وأخيـــرًا قررت أن ننطلق وليكن ما يكـــون، كنت أفكر في زملائي وكنت خائفًا أن يغير القراصنة من موافقتهم ويعودوا إلى الســـفينة، كان المشـــهد بين أفراد أســـرتي وفي البلدة التي أسكن فيها طبيعيًّا تمامًا حيث لم يعرف أحد بعد بأمر اختطاف الســـفينة أو القراصنة المسلحين، كانت (أندريا) مريضة طوال يوم الثلاثاء، بزكام وأنفلونزا، وكانت نائمة أغلب الوقت، وأصـــرت والدتها أن تأتي بأختها (ليا) كي تهتم بها.

في صباح الأربعاء، اســـتعدت (ليا) للذهاب إلى عملها، كان الجو باردًا لكن مشمسًـــا، وهذا الطقس طبيعي في (فيرمونت) في شـــهر مارس.

في تمام الســـاعة السابعة والنصف صباحًا.. كانت (ليا) تسير إلى ســـيارتها.. عندما انطلق جرس الهاتف الأرضي، وكانت الســـاعة في الصومال الثالثة والنصف عصرًا، حيـــث الصومال تزيد عن أمريكا 8 ســـاعات، كان على الهاتف جارنا (مايك ويلارد) الذي يسكن في آخر الشارع ويعمل كمهندس في شركة ملاحة بحرية.

تذكرت (أندريا) صوت (مايك) حيث كان له صوت مميز.

قال (مايك):

- ما اسم السفينة التي يعمل عليها ريتشارد؟

قالت (أندريا):

- لماذا.. ماذا حدث؟

أجاب (مايك):

- (أندريا).. فقط أخبريني، ما اسم السفينة؟

أجابت (أندريا):

- ماريسك ألاباما.

قال (مايك):

- أعتقد أنه تم اختطاف السفينة، سوف أحضر لك حالًا.

لم تصدق (أندريا) ما ســـمعته.. لم تنهـــار على الفور.. حيث هي كانت تعلم أن هنـــاك دائمًا حوادث اختطاف للبحارة، وعادةً يعودون إلى منازلهم بأمان وذلك بمجرد أن يتم سداد الفدية، انطلقت (أندريا) للخارج للحاق بأختها قبل أن تقود السيارة:

- ليا.. ليا.. لا تذهبي.. لا تذهبي.. ريتشارد اختطف.

بعدها عاد الجميع إلى المنزل وشاهدوا قناة (CNN) اتصل (مايك ويلارد) بالشـــركة الأم حيث يعمل في نفس الشـــركة، كانت الشركة تحاول أن تتحقق من المعلومات قبل إصدار أي بيانات.

بعدها جلســـت (أندريا) أمام شاشة الكمبيوتر، وكتبت لي (إيميل) في الساعة 11.29 صباحًا.

ريتشارد

أنا علمـــت بما حدث، أنا معك وبجانبك على طول الخط، تمســـك بإيمانك.. أحبك من كل قلبي.

حبيبتك أندريا

لم أر هذا (الإيميـــل) إلا بعد انتهاء الأزمة بالكامل.. عادت (أندريا) للجلوس أمـــام التلفاز حيث كان هو مصـــدر المعلومات الوحيد لها، في نفس الوقت توجـــه فريق عمل من قناة فوكس نيوز Fox News.. للأكاديمية البحرية في ماستشوستس لعمل تقرير من هناك، وكان هذا لا يمت للموضوع أو لما حدث بصلة، كان والد (شين) (مورفي) يعمل بالأكاديمية واستطاع الاتصال بـــ (شين) واطمأن، لكن عندما سئل عن الكابتن (ريتشـــارد) لم يجب.. بعد مرور بعض الوقت.. اتصلت (أندريا) بـــ (دان) و(ماريا) حيث أرادت أن تخبرهما بنفســـها ولا يسمعان لأول مرة من التلفاز، تركت رسالة لهما.. ملخصها؛ أن أباكما بخير، وحدثاني إذا استطعتما.

الفصل الثالث عشر

اليوم الأول، الساعة 7.00 مساءً

قمت بإنزال قـــارب النجاة إلى المياه وأنـــا بداخلها ومعي ثلاثة قراصنة، طلبت من (شـــين) أن يقوم بتمشيط السفينة بعد أن نبتعد، وألا يعطوني الوقود الإضافي الذي وضعته في (الجركن البلاستيكي).. وكذلك قائدهم يأتي معنا، جلس (موســـو) وطويـــل القامة ووضعا أسلحتهما على أرجلهما، بدأ (شين) في إنزال الوقود لنضعه في قارب النجاة، حاول قبلها (شـــين) أن يضع ماءً على الوقود قبل إنزاله إلينا، كي يفســـد محرك قارب النجاة إذا استخدموه، وكنت قد فعلت الشيء نفسه من قبل، بعد إنزال كامل الوقود، نظر إليَّ (موسو) قائلًا:

– الآن نريد المزيد من الوقود والطعام.

نظرت إليه بدهشة، وقلت:

وقود أكثر، لماذا؟ هل أنت ذاهب إلى مدينة ديزني؟

ضحك (موســـو).. وكان ضحكه هذا منطقيًّا حيث لم يخسر شيئًا، أخذ 30 ألف دولار ومعه رهينة أمريكي.. (أنا).. بدأ (شـــين) في إنزال الطعـــام.. كان الطاهي قد أعده منذ يومين، طعـــام قديم، أعتقد غير صالح للأكل، وكان أيضًا يحتوي على لحم الخنزير، كل شـــيءٍ أصبح جاهزًا للتسليم.. يأتي قائدهم وأعود أنا إلى السفينة.. تبادل الرهائن، حاولت إدارة المحرك لأقترب من الســـفينة للتبـــادل، لكن المحرك لا يعمل، حاولت ضغط زر التشغيل عشر مرات لكنه لا يعطي أي شيء، نظر (موسو) إليَّ وقال:

– ماذا هناك.. المحرك لا يعمل؟

قلت له:

ابتعد قليلًا.. دعني أفحص البطاريات.. يبدو أن البطاريات لم يتم شحنها جيدًا.

أمسكت بالراديو وحادثت (شين):

لدينا مشكلة.

– ماذا؟

– البطاريات لا تعمل.

سمعته ينفث هواءً كثيرًا.. وقال:

– انتهت اللعبة لصالحهم.

فقلت:

– لا.. ليس بعد.

أخرجت بعـــض أدوات الإصلاح من صندوقٍ صغيـــر به الأدوات الأساسية، فحصت توصيلات البطارية ربما يكون هناك (سلك أو كابل) غير متصل جيدًا لكن كان كل شيءٍ ثابتًا في مكانه بشكلٍ صحيح.

كان الحل الآخر الذي في رأسي؛ هو استعمال قارب إنقاذٍ آخر، كان يوجد قارب آخر لكنه كبير بعض الشيء ومغلق تمامًا، طوله 25 قدمًا وارتفاعه 10 أقدام، ويعمل بمحرك واحد وبه صفوف كراســـي تواجه بعضها البعض، وكان هذا آخر ما فكرت به..

قلت للقراصنة:

دعونا نعود إلى السفينة باســـتخدام المجاديف، وهناك يمكن أن نأخذ قارب إنقاذٍ آخر، حيث أن هذا القارب لن يعمل.

قمنا بالتجديف وربطناه في جانب السفينة، وقلت للقراصنة:

– أبعدوا أسلحتكم عني.

المهندس الثالث ورئيس البحارة، قاموا برفع قارب الإنقاذ المعطل إلى ظهر السفينة، وإنزال كل ما به من محتويات؛ طعام ووقود.. وبدأ الاهتمام بقارب الإنقاذ الآخر، المغلق.. أراد (شين) أن يكون بنفسه مع القراصنة في قارب الإنقاذ بدلًا مني، أخبرته أنه الآن المســـؤول الأول، وهو (الكابتن) في (ماريسك ألاباما) والجميع هناك يحتاج إلى وجوده.

الآن نعود إلى حيث أســـرتي، كانت (أندريا) تتجول حول المنزل، تفكر كثيرًا وكانت ترتدي ســـترتي، حيث تحمل رائحتي، وكانت تلوم نفسها أنها قامت بغسل جميع ملابسي بعد سفري إلى (عمان).. ما عدا

ذلك (الجاكت).. لذا ما زالت رائحتي عالقة به.. وقد أخبرتني فيما بعد؛ أنها كانت ترتديه كل الوقت، وفي الليل تضعه بجوارها على السرير.

وفي منتصف نهار الأربعاء، بدأ اســـمي يتردد فـــي الإعلام، وبدأ بعض رجال الصحافة يترددون على منزلي، وقد قامت أخت (أندريا) بمقابلتهم ودعوتهم جميعًا لشرب القهوة، وبدأ العدد في ازدياد.

وبدأ والد (شـــين) (مورفي) في الاستمرار بالحديث للإعلام عن أن (شين) هو (كابتن) أو قبطان (ماريسك ألاباما).. وهذا يعتبر صحيحًا في حالة مغادرة القبطان للســـفينة لأي سبب، فيصبح المساعد الأول هو القبطان.

وقد أغضب ذلك الحديث (أندريا)..

وكانـــت الفكرة والمعتقد لدى (أندريا) عن حل تلك الأزمة كالتالي: (القراصنة أخذوا السفينة وطاقمها رهائن، سوف يطلبون فدية، شركة الملاحة ستماطل بعض الشيء وتحاول التفاوض لتقليل المبلغ، ولكن في النهاية سوف تدفع الشـــركة مبلغ الفدية للقراصنة وينتهي الأمر على خير، وأعود أنا وباقي أفراد الطاقم إلى منازلنا.)

انتهى تجهيز قارب الإنقاذ الجديد بكل ما نحتاجه، وأعطيت الضوء الأخضر لـــ (شـــين) بإحضار قائد القراصنة الذي بحوزة زملائي (طاقـــم المركب) ليتم التبادل، وقلت لـــ (شـــين): "أنزلوه في نفس الوقت الذي ترفعوني فيه من قارب الإنقاذ إلى الســـفينة.. فأنا لا أثق بهؤلاء القراصنة، حيث يمكن أن يقوموا بأي خدعة."

كنت في قارب الإنقاذ، وشاهدت الرجال يحضرون قائد القراصنة ويده مربوطة برباطٍ أبيض، من الواضح أنه جُرح في يده.

فقلت للطاقم:

أنزلوه إلى قارب الإنقاذ، وبعدها أصعد أنا إلى السفينة.

نزل قائد القراصنة عبر سلم إلى ظهر قارب الإنقاذ وقفز إلى الداخل وأحدث هزة للقارب، والآن حان دوري للصعود عبر السلم إلى السفينة.

سألني القائد، قبل أن أغادر:

أرني كيف يعمل هذا القارب؟

أطفأت المحرك وأدرته أكثـــر من مرة أمامه كي يفهم، كيف يعمل وكيف يستخدم المقود للانحدار يمينًا أو يسارًا، وأين البوصلة.. جلس قائد القراصنة على كرسي القيادة وقال أنه يريد أن يجرب بنفسه قبل أن أغادر، أدار المحرك ودفع عجلة الحركة للأمام، تحرك القارب قليلًا، بعدها زاد من السرعة بشكلٍ مخيف وابتعد بعيدًا عن السفينة، قلت له صارخًا:

وماذا عن الاتفاق؟.. لا بد أن أعود.

فقال لي:

ليس هناك أي اتفاق.

وهنا جاء الـــدرس لأتعلمه.. (لا تعقد صفقـــات أو اتفاقيات مع قراصنة) دفعني أحد القراصنة وأجلســـني على أحد الكراسي، ويوجد في نهاية القارب باب.. فكرت فـــي الجري والقفز منه إلى الماء، لكن

خشـــيت من بنادقهم الأوتوماتيكية سريعة الطلقات، أكيد ستلحق بي حتى لو قمت بالغوص تحت سطح الماء.

كان جهاز الراديو لا يزال معـــي، فقلت عبره: "نحن نبحر بعيدًا.. لا تبادل" ثم نظرت حولي وشـــاهدت البوصلة، فأيقنت أن القراصنة متجهون إلى الســـاحل الصومالي، كان الوقت قد اقترب من الغروب، وكنت لا أزال أرى جسم سفينة (ماريسك ألاباما) قابعًا بعيدًا في الضوء الخافت المتبقي من الشمس.

ســـمعت صوت (مايك) كبير المهندسين، يقول: "تأكدوا من أنه لا يوجد أي زوارق صغيرة حولنا".. ابتســـمت وعرفت أن الســـفينة في أيدٍ أمينة، وشـــاهدت القراصنة ينظرون عبر النوافذ إلى السفينة وهي مضاءة تمامًا وتسير في المحيط.. وكأنهم يريدون القول.. أنها تعمل ومضاءة وتبحر، فلماذا كانت معطلة تمامًا منذ بضع ساعات؟!!

رأيت الخوف على أوجه القراصنة وهم يشاهدون (ماريسك ألاباما) متجهة ناحيتنا بسرعةٍ شـــديدة، كنت لا أخشى إذا صدمت حيث كنت أعلم أن قارب الإنقاذ هذا مجهز لمثل هذه الظروف (أي الاصطدام)...

فسوف يغوص تحت السفينة التي تصدمه إلى أن تمر، بعدها يرتفع ثانية إلى سطح الماء، قال أحد القراصنة ويقصد (شين):

- هذا المساعد سيصدمنا عن قصد.

فقلت له متظاهرًا بالضيق:

- إنه يريد أن يأخذ وظيفتي.

توجه (موسو) ناحيتي ووجه بندقيته إليَّ قائلًا:

- أخبرهم ألا يقتربوا من قارب الإنقاذ.. أخبرهم أن يبتعدوا.

بدأ قارب الإنقاذ يدور حول الســـفينة عدة دورات، وبعدها أبطأت السفينة من سرعتها، واستدارت في الاتجاه الآخر...

بعدها حل الظلام...

دار حوار غريب بين القراصنة و(شين) عبر الراديو.

قال قائد القراصنة:

- سوف نعود إليكم ثانية في السفينة غدًا.

قال شين:

- هذا رائع.. لنبدأ من جديد.. كان هناك مجرد سوء فهم.

القائد:

- حسنًا.. أرجو أن تدعنا نضعه على السفينة.

(شين):

أكيد..

ثم قال (ضاحكًا):

- أنت فقط تعال في الغد وستجد طعامًا وماءً مثلجًا في انتظارك.

غريب حقًّا هذا الحوار.. حيث شـــعر كل طـــرفٍ بالراحة وإزالة الضغوط، كان القراصنة مشغولين للغاية بالنظر إلى أعلى.. إلى السماء، حيث كانوا موقنين أن هناك طائرة مروحية سوف تأتي لإنقاذي...

حاولت التحدث عبر الراديو دون أن يسمعني أحد.. شرحت مكان كل فردٍ من القراصنة في داخل قارب الإنقاذ، وأخبرت (شـــين) أنني سوف أحاول القفز من الباب الخلفي، فإذا شاهد مياهًا متناثرة، فليعلم أنه أنا، قد قفزت إلى المياه، ويحاول الاقتراب بالسفينة ويساعدني على الصعود..

كان الصوماليون قد وضعوني في الكرسي الأول من صف الكراسي الثالث وهذا مناسب حيث كنت أســـتطيع أن أرى الباب الخلفي جيدًا، وحاولت أن أظل في نفـــس مكاني لا أغيره حتى إذا جاء أحد لإنقاذي يعرف تمامًا في أي كرسيٍّ أجلس.

قام القراصنة بإغلاق النافذة العلوية من قارب الإنقاذ، خوفًا من أن تأتي مروحية فينزل منها رجـــال صاعقة ويدخلون من خلال الفتحة العلوية، وبعد إغلاق النافذة ازدادت درجة الحرارة داخل قارب الإنقاذ، وقل الأكسجين وكان الحر شديدًا للغاية وغير محتمل...

اقتربت الســـاعة من الثانية صباح يوم الخميس، نظرت من خارج النافذة لأرى أجمل منظر كنت متشوقًا لمشاهدته، سفينة حربية تابعة للبحرية الأمريكية، تبحر تجاهنا بســـرعة 30 عقدة، ذات إضاءةٍ قوية وصافرات إنذارٍ وســـماعات مكبرة، وقد سلطوا ضوءًا قويًّا على قارب الإنقاذ، أضاء ما بداخله، صرخ قائد القراصنة في جهاز الراديو قائلًا: "أطفئ الأنوار، أطفئ الأنوار، لا تفعلوا شيئًا.. لا تقذفوننا."

شعرت بروحٍ عاليةٍ، وطني... أبناء وطني جاءوا لإنقاذي.

أُعلن في مساء الأربعاء في وســـائل الإعلام؛ أن القراصنة أخذوني وحدي في قارب إنقاذ، قالت (أندريا): "يا إلهي، كيف حدث هذا؟"

وقد عرفوا تلك الأخبار... بعد الاتصال بالسفينة، رد عليهم المساعد الثاني قائـــلًا : "أخذوا واحدًا منا"... بعدهـــا أغلق الهاتف حيث كان منشغلًا بقيادة السفينة، كان كل فردٍ في حالةٍ غير طبيعية..

في صباح يوم الخميس، قامت (ليا) بعقد جلسات مع رجال الإعلام، وفي كل مـــرةٍ كانت (أندريا) تخرج من باب المنزل، يقابلها عدد كبير من الصحفيين والمصورين، يريدون التحدث إليها والتقاط صورٍ لها.

قالت لهم (أندريا): "أنا لا أحب اقتحام الخصوصية.. ليس لدي ما أقوله."

وبعد نقاشٍ مع رجال الصحافة، اتفقوا أن تظهر (أندريا) في أحد البرامج على قناةٍ واحـــدة فقط، بعدها.. انهالت القنوات عليها تطلبها لتظهر في برامجهم على الهواء مباشـــرة للحديث عن كل تفاصيل تلك الحادثة..

بدأ تعاطف الرأي العام يزداد مع (أندريا) والموقف الصعب الذي أنا فيه ومن بعدي أسرتي، وانهالت المكالمات عليها لتعلن تضامن الجميع معها، حتى رئيس شـــركة (ميرسك).. (جون راينهارت) اتصل بـــــ (أندريا) وأبدى تعاطفًا كبيرًا ثم أخبرها أنه مهتم اهتمامًا شخصيًّا بي..

فأجابته (أندريـــا): "أنا لا أريد إلا (ريتشـــارد)." خصصت قوة الشرطة الفيدرالية (FBI) سيدتين ليظلا على اتصال بـــــ (أندريا)

لإعطائها آخر الأخبار والتطورات، بدلًا من أن تنتظر لتسمع من نشرات الأخبار والوسائل الإعلامية.

كانت المدمرة البحريـــة الأمريكية، تلعب لعبـــة القط والفأر مع القراصنة، حيث كانت المدمرة تقترب للغايـــة، وتحدث أمواجًا قوية حول قارب الإنقاذ ثم تتجه إلى الناحية الأخرى وتحدث أمواجًا أخرى مع تسليط ضوءٍ قوي على قارب الإنقاذ، وهذا بالطبع يصيب القراصنة بالكثير من الضيق، وكانت (ماريسك ألاباما) متوقفة على بعد حوالي ثلاثة أميال، لتفسح المجال للقوات البحرية للتعامل مع الموقف.

ســـمعت صوت المتحدث الرســـمي للمدمرة الأمريكية يذكر اسم المدمرة (يو اس اس بينبريدج) (USS Bainbridge) كنت سعيدًا عند سماع اســـم (بينبريدج).. حيث كان أحد البحارة التجاريين وتم أسره في (طرابلس).. (ليبيا) عام 1803 على يد قراصنة، وقد أرسل الرئيس الأمريكي وقتذاك (توماس جيفرسون) قطعة بحرية أمريكية لإنقاذه..

فكنت ســـعيدًا حيث أن المدمرة تحمل اسمه، وشعرت بمؤشرات للحرية تقترب، لكن الشيء السلبي هو أن (بينبريدج) قد تم احتجازه لمدة 19 شهرًا قبل أن يتم تحريره، فهل سأمكث مثله مدة طويلة قبل أن أنال الحرية؟

كانت الحرارة في القارب عالية للغايـــة خاصة أن الماكينة تحت قدميّ وتعمل طوال الوقـــت، وكنت لا أتحمل الحرارة وتصيبني بمزاج سيئٍ للغاية، تحدث رجال البحرية الأمريكية وأرادوا أن يمدوننا ببعض الطعـــام والماء، وافـــق القراصنة، انطلق بعدها قـــارب مطاطي من

المدمرة متوجهًا إلينـــا، اقترب القارب المطاطي وألقى بصندوق قرب الباب الخلفي لقارب الإنقاذ، وفتح القراصنة الباب وأخذوا الصندوق، كان به بعض الطعام والشوكولا وجهاز لاسلكي وبطاريات، كنت خائفًا من تناول الطعام الذي أرســـلوه، ربما يكون به بعض المواد المنومة أو المخدرة لمساعدتهم في الســـيطرة على القراصنة، كان القراصنة يشعرون بالحرارة الشديدة مثلي، فكان كل ساعة، يفتح أحدهم الباب الخلفي ويقفز في المياه لبضع دقائق كي يبرد جســـمه ثم يعود إلى القارب أو يفتـــح أحدهم الباب لقضاء حاجته، الجو العام داخل قارب الإنقاذ ليس ســـيئًا حيث كان يشـــعر القراصنة أن لهم اليد الطولى والعليا، فهم لديهم رهينة، وربما يتـــم اعتماد هذه الطريقة الجديدة، وهو الدخول إلى الســـفن ثم اختطاف رجلٍ أو اثنين في مركب إنقاذ وبعدها تبدأ المساومة، كنت أشعر بالراحة لوجود المدمرة الأمريكية، لكن الموقف لم يتغير كثيرًا.

بدأ قائد القراصنة في الحديث عما حدث له على السفينة (ماريسك ألاباما).. حينما تم أسره واحتجازه.. وقد كان غاضبًا للغاية من (مايك) كبير المهندســـين حيث هو من دبر أمر احتجـــازه، وهو من ضربه بالسكين في يده، كدت أضحك وأنا أسمع هذا، فقلت له: "ماذا تتوقع؟ كنت تخيفهم وتطلق عليهم النيران، ماذا سيفعلون؟"

وبينما نحن داخل قارب الإنقاذ، كنت أشرح لقائد القراصنة، أماكن التخزين في القارب حيث هناك صندوق صغير للإســـعافات الأولية، وآخر به بعض أدوات الإصلاح، ومكان به كيس كبير لوضع الموتى...

وبينما هو يسمعني، كان يعاني من آلامٍ شديدة في يده من أثر جرح السكين، فقلت له:

- هل نظفت ذلك الجرح وقمت بتطهيره؟

أجاب:

- لا.

فقلت:

- الأفضل أن نفعل ذلك قبل أن يزداد الأمر سوءًا.

بدأ قائد القراصنة في فتح صندوق الإسعافات الأولية، وكان بقية القراصنة ينظرون إلى كل الأدوات وكأنهم يشاهدونها لأول مرة، لا يعرفون منها شيئًا.

أخذ (موسو) يساعدني ويناولني ما أطلبه منه لتطهير الجرح في يد قائد القراصنة، وبين الحين والآخر يسألني عما أستخدمه وما فائدته.

وكان يتألم للغاية خاصة بعد أن بدأت أزيل الرباط الملوث المليء بالدم وتنظيف الجرح.

بدأت الأمور المعنوية في التحسن داخل قارب الإنقاذ، ودار حديث لطيف بيننا جميعًا، وكان يبدو على (موسو) وطويل القامة أنهما عملا كبحارين من قبل، حيث كانا على علمٍ بأمورٍ كثيرة لا يعرفها إلا من عمل بالبحر.

أما القائد فلا يبتسم إلا نادرًا.

تذكرت شيئًا، عندما أعطيت مبلغ 30 ألف دولار لـ (موسو) وطويل القامة في السفينة، كانت الأوراق المالية بعضها فئة مائة دولار وأخرى فئة خمسين وعشرين دولارًا، فكان (موسو) وطويل القامة يقسمان النقود فيما بينهما.. (موسو) يعطي كومة لنفسه وكومة أخرى من النقود لطويل القامة، وهذا هو العدل كما يظنان، فكان يعطي لنفسه كومة من فئة 100 دولار، ويعطي طويل القامة كومة مقابلة من فئة 50 دولار أو 20 دولار.

وقد شاهدت ذلك بنفسي.. حتى اللصوص والقراصنة لا أمانة فيما بينهم، فمن أين يعرفون معنى الشرف والأخلاق؟

بدأت أتوجه بالحديث قليلًا إلى الفتى الصغير.. كنت أشعر أنه مختلف عنهم، ربما اضطرته ظروف الحياة للعمل معهم.. أعطيته بعض النصائح، أنه لا يجب أن يصبح مجرمًا وأن يكون بين هؤلاء الناس، فكان يبتسم ويهز رأسه فقط.. بعدها أتى طويل القامة وفتح النافذة العلوية ليسمح بدخول الهواء ليقلل من الحرارة ونستطيع التنفس...

لذا توقفت عن الكلام كي لا يثير هذا حفيظة طويل القامة الذي يتسم بالعنف، استطاع رجال البحرية الأمريكية بطريقةٍ ما إيجاد مترجمٍ صوماليٍّ في وقتٍ قياسي، بدأ بالتحدث إلى القراصنة بالصومالي، وكان رد قائد القراصنة حسب ما فهمت: "أريد عبد الله.. أريد عبد الله.. أحضر عبد الله."

واستمروا بالتحدث بالصومالية، ولم أستطع أن أفهم شيئًا بالطبع.. لكن بعد لحظات تحدثت بصوتٍ عالٍ قائـــلًا: "أنا كابتن فيلبس، من سفينة ماريسك ألاباما".. وتعمدت أن أرفع صوتي كي يسمعه الطرف الآخر على الراديو ويعلمون أنني على قيد الحياة.

نزعت حذائي وقميصي من كثرة ســـخونة الهواء والحرارة، لم أعد أحتمل الملابس فوق جسدي، وبدأت فكرة الهروب تراودني مرة أخرى، أخذت أشجع نفسي أن أفعلها وأهرب إذا سنحت نصف الفرصة.

وظللت أدعو الله وأصلي وأنا جالـــس، أن يعطيني القوة والصبر ويمنحني حسن التدين، كي لا أخطئ.. فالخطأ هناك معناه موتي.

أما عن (أندريا) فكانت لا تســـتطيع النوم جيدًا، حيث كانت ترقد في الجانب الذي أنام به وتضع (الجاكت) الذي يحمل رائحتي فوقها، وتصلي كثيرًا من أجلي ومن أجل الحرية.. وكانت تتشـــوق لسماع أي أخبارٍ جديدة، فذهبت إلى جهاز الكمبيوتر لتتفحص (الإيميل) الخاص بها، ربما تتلقى أي خبرٍ جديد...

وبالفعل كان هناك (إيميل) من (شين) المساعد الأول.. أرسله من السفينة.

أندريا

أنا (شين مورفي) المساعد الأول على سفينة (ماريسك ألاباما).. أود أن أوافيكِ بآخر الأخبار بخصـــوص زوجك، هو ما زال في روحٍ عاليةٍ مرتفعة ولكنه ما زال رهينة، سينتصر.. أنا أعلم كم هو قوي وسيكون

أقوى من أي شـــخصٍ آخر في هذا الموقـــف.. وهناك 19 رجلًا على الســـفينة يدينون له بحياتهم، ويقدمون له الشكر والدعاء بكل نفسٍ نلتقطه..

وقد أحسنا جميعًا التصرف بفضل تدريباته وتعليماته..

كل ما أريد قوله، هو أنه يجب عليك التمســـك بالأمل والإيمان وأنه سيخرج من هذا الموقف سالمًا.. ويوجد الآن البحرية الأمريكية تتعامل مع الموقف.

نحن جميعًا نكن له الاحترام والعرفان بالجميل..

شين

أدخل هذا الخطاب عبر البريد الإلكتروني.. السرور والفرحة والأمل على قلب (أندريا).. لاحظت (أندريا) كيف تعاطف معها الجميع، حيث كانوا يرســـلون الطعام إلى منزلها لأنهـــم يعلمون أنها لن تقترب من المطبخ في هذه الظروف..

وكذلك كم الاتصالات التي تنهال عليها ومن أناسٍ ربما لم تســـمع أصواتهم منذ 25 عامًا.. واستمرت الـــــ أف بي أي FBI تتابع الموقف معها وتطلعها على آخر الأخبار أولًا بأول.. كذلك الشركة الملاحية.

الفصل الرابع عشر

اليوم الثالث، الساعة الثانية صباحًا

مع بداية يوم الجمعة، اســـتطعت أن أخلد للنوم لبعض الوقت وأنا جالس على الكرســـي وأحيانًا كنت أحاول النوم راقدًا.. لكن ذلك كان صعبًا، وبين فترةٍ وأخرى كنت أفتح عينيّ لأعرف ما يفعله القراصنة...

أخيرًا.. وضع (موسو) بندقيته جانبًا وراح في نومٍ عميق، وسمعت صوت شخيره المستمر، الوضع هادئ تمامًا في قارب الإنقاذ، بعد فترة شـــاهدت طويل القامة يفتح الباب الخلفي، وكان يقضي حاجته واقفًا في مؤخرة قارب الإنقاذ.

الآن.. أعتقد الآن أستطيع أن أفعلها.. سرت ببطءٍ وهدوءٍ شديد إلى فتحة الباب الخلفي.. شـــاهدت البندقية بجوار الباب، فكرت للحظاتٍ أنني أستطيع استخدامها وأقتل الجميع وتنتهي المشكلة تمامًا.

خرجت من الفتحة الخلفية وشـــاهدت طويل القامة، دفعته بكلتا يديّ، سقط في الماء، وقفزت أنا في الاتجاه الآخر، بدأ الجميع يستيقظ

وأداروا قارب الإنقاذ للعودة واللحاق بي.. كنت أسبح ثم أغطس تحت الماء وأنظر خلفي وأشاهدهم وبنادقهم مصوبة إلى الماء في محاولةٍ لإصابتي، كانت ســـفينة القوات البحرية على بعد حوالي نصف ميل، وقارب الإنقاذ الذي به القراصنة يطاردني، ومن الممكن أن يصدمني، وإذا حدث هذا فســـوف أُقتل، كانت الأفكار لا تفارق رأســـي، لدرجة أنني كنت أفكر في أســـماك القرش متعددة الأنواع حيث أن الساحل الصومالي مشهور بوجودهم بكثرة..

كنت أفكـــر أيضًا في القوات البحرية الأمريكية، بالتأكيد شـــعروا بما حدث، أنني قفزت في الماء وأحاول السباحة للوصول إليهم، فهل سيساعدونني أم لم يشعروا بوجودي؟ لم أكن في أفضل حالاتي البدنية بسبب الإرهاق والحر الشـــديد وقلة النوم، كان القمر ساطعًا وضوؤه كاشـــفًا للمكان، فنظرت خلفي وشـــاهدت القراصنة في حالة جنونٍ يريدون اللحاق والإمساك بي...

استطاع قارب الإنقاذ اللحاق بي فغطست تحت الماء، ومر من فوقي ثم صعدت ثانية لأتنفس وشـــاهدت القارب يدور دورة كاملة للعودة إليَّ ثانية، توقف القارب بجوار رأسي وسمعت صوت إطفاء المحرك، حاولت أن أختبئ بجانب القارب، لكن من الواضح أنه تم مشـــاهدتي، إلى أين ذاهب؟ لا مكان للاختباء وأنا في المياه..

ســـمعت صراخ القراصنة وهم يتحدثـــون ويبحثون عني.. بعدها ســـمعت المحرك يدور وسار القارب ببطءٍ وأنا متعلق بجانب القارب، كنت أخشى أن تفلت يداي، وبذلك يستطيعون رؤيتي.

بعدها توقف القارب ثانية وسمعت أصوت أقدامٍ تأتي إلى جانب القارب.. غطست في المياه كي لا يراني أحد، وأخرجت رأسي من ناحية الجانب الآخر للقارب، بالطبع فقدت الأمل لأن أصل إلى السفينة الحربية الأمريكية.

ظللت أسبح من جانبٍ لآخر كي لا يراني أحد، وبينما أنا أنتقل إلى الجانب الآخر وأخرج رأسي من الماء.. شاهدت طويل القامة وجهًا لوجه..

صرخ.. أي أنه قد وجدني.. تشابكنا بالأيدي، حاولت أن أمسك برأسه وأضغط عليها تحت الماء.. ظللت أضغط وأسمع فقاعات الهواء من أثر تنفسه تحت الماء، قام وأخرج رأسه من الماء، لم أر منه إلا بياض أسنانه وعينيه، ظل يصرخ وأنا أحاول إغراقه، وهو يخرج الماء بقوةٍ من فمه.

سمعت أصوات أصحابه يأتون لمساعدته، تركته وغطست تحت المياه وانتقلت إلى الجانب الآخر.. أخرجت رأسي وإذا بي أجد أحد القراصنة فوق رأسي وفوهة بندقيته مصوبة إلى جبهتي، وأطلق النار مرتين فوق رأسي، صرخت من الخوف قائلًا: "حسنًا.. حسنًا.. سأخرج من الماء وأعود إلى القارب."

بينما أنا أجري.. صوبوا البنادق نحوي، وكان أحدهم يقول: "سنقتلك.. سنقتلك".. قاموا بمساعدة بعضهم البعض لسحب طويل القامة وإخراجه من الماء إلى داخل قارب الإنقاذ، أدخلوني داخل القارب وهم لا يتوقفون عن ضربي بشدة، وكانوا في حالة هياجٍ

شديدة، واستمروا في ضربي بإيديهم وبمؤخرة البنادق، قاموا بتوثيقي بالحبال جيدًا ورفعوا يديّ لأعلى وأوثقوهما في إحدى الزوايا قرب سقف القارب.. كنت أشعر بآلامٍ في أماكن متفرقة من جسدي، كانوا كالنحل الغاضب ولا يقولون إلا "سنقتلك.. سنقتلك".. لم يكن هناك مساحة كافية لهم جميعًا الأربعة ليضربونني في وقتٍ واحد، لذا تناوبوا على الضرب، كل واحدٍ منهم يضربني ثم يأتي زميله الآخر، وقد شدوا وثاق يديّ وقدميّ، ثم بدأ الضرب يتوقف، أعتقد أنهم شعروا بالتعب.. صرخت فيهم أن يفكوا وثاق يدي حيث بدأت أفقد الشعور بيدي، جاء (موسو) وفك رباط يدي.

سمعتهم يتحادثون بالصومالية، وما استطعت فهمه هو أنهم لا بد أن يقوموا بحراسة الباب الخلفي جيدًا كي لا أهرب مرة ثانية.

أوشكنا على فجر يوم الجمعة، والشمس بدأت في الظهور، الجميع كان متعبًا للغاية.. أنا من السباحة والغطس وضربي بشدة، وهم من كثرة ضربي، زادت حرارة الشمس والسخان الذي نحن بداخله بدأ في الغليان من جديد، حرارة الجو شديدة.. لا تطاق.

كان القراصنة يتحدثون عبر جهاز الراديو إلى المترجم، نظرت إلى الخارج عبر النافذة، شاهدت المدمرة الحربية ولم أشاهد (ماريسك ألاباما).. شعرت بالسعادة والفرحة أنها أبحرت بعيدًا في طريقها إلى (مومباسا) وأن الجميع بخير ولا خوف عليهم من هؤلاء القراصنة.

بعد فترةٍ طويلة علمت أن (شين) رفض الإبحار وترك المشهد وتركي، لكن قوات البحرية الأمريكية أصروا على ذلك، وقالوا أن هذا

هو الأمان للجميع، حدث حوار طويل بيني وبين القراصنة وشـــجار عنيف.. حيث رآني أحدهم أحاول أن أقضم الحبل بأســـناني لأقطعه وأحرر نفسي من الوثاق الذي أوثقوني به.

بينما أنا في شجارٍ وشدٍّ وجذبٍ مع القراصنة.. كانت (أندريا) على بُعد 7500 ميل.. تتلقى مكالمات من أناسٍ كثيرين.. لدرجة أنها تلقت مكالمة من خطيبها السابق قبل 20 عامًا.

كان الدعم الذي تلقته (أندريا) من الجميع أكثر من رائع، وساعدها كثيرًا على تجاوز الأزمة والمحنة.

وفي ظهيرة يـــوم الجمعة كان المنزل ممتلئًـــا عن آخره بأعضاء الأسرة والعائلة والأصدقاء...

الفصل الخامس عشر

اليوم الثالث، الساعة السادسة مساءً

صار القراصنة يتصرفون بعصبيةٍ شـــديدة، بدأوا يتحاشـــون أن يفتحوا أي أبوابٍ أو نوافذ، كانوا يخشـــون من بنادق القناصة التابعة للبحرية الأمريكية، والقـــارئ للتاريخ يعلم جيدًا أنه لم يتم تحرير أي شـــخصٍ أو رهينة من قبضة الصوماليين.. فالجميع دفعوا فدية ليتم تحرير رهائنهم.

وكان قائد القراصنة يتكلم في الراديو بشـــكلٍ مستمر قائلًا نفس الجملة: "لا هجوم عسكري.. لا هجوم عسكري."

طلب أعضاء البحرية الأمريكيـــة الحديث معي.. وصمموا على هذا المطلب، أعطاني قائد القراصنة الراديو، صوت أمريكي:

هل يعاملونك جيدًا؟

قلت:

إنهم يتصرفون بطريقةٍ غريبة، لكن المعاملة ليست سيئة.

الصوت:

- حسنًا.. دعني أتحدث إلى القراصنة.

بعدها تجمع القراصنة حولي، وشـــدوا وثاقي بأحبالٍ أكثر حول قدميّ ويديّ، ووضعوا منديلًا في فمي كي لا أستطيع الكلام أو الصراخ.

وكان (موسو) يسألني:

ما اسم قبيلتك؟

قبيلتي.. ليس لي قبيلة.. أنا أمريكي.

لا.. لست أمريكيًّا.. لديك قبيلة.

حسنًا.. أنا من أصولٍ إيرلندية.. (Irish) إيرش.

وفجأة سمعت صوت فرقعة عالية... بوم.. بوم.

وكان هنـــاك ضوءٌ قوي اخترق عينيّ.. ظننـــت أنني قُتلت أو أنهم أطلقوا النيران عليَّ.. وتناثر دم كثيف على وجهي وملابســـي والرباط الذي يوثق يديّ.. ودماء على قارب الإنقاذ.

شاهدت طويل القامة يترنح وهو يسير إلى مقدمة القارب، وبعدها رأيت الجميع كما هم بخير، لم يحدث أي شيء.. فما كل هذا؟ وما هذه الدماء؟.. لم أفهم.. وظننت أنهم ربما يؤهلونني قبل أن أقتل.. تذكرت (أندريا).

وتحدثت إليها في خيالي كأنها جالسة أمامي على طاولة الطعام، ونحن نتبادل الحديث، اعتذرت لها عن كل المتاعب والقلق الذي سببته

لها.. والأيام الصعبة التي نعيشـــها الآن بسببي، وكذلك ابني وابنتي.. وأنني حاولت أن أكون أبًا وزوجًا جيدًا لأجلب لهم جميعًا السعادة.

كنت أشـــعر أنني أودعهـــم قبل أن ألقى مصيـــري على يد هؤلاء القراصنة الجبناء.

بعد مرور ثلاث ساعات.. بدأت الشمس في السطوع، وكان القراصنة يرددون بعض الأناشيد والشـــعارات، ظننت أنها صلوات خاصة بهم، حيث أنني أعلم أن المسلمين يصلون خمس مرات في اليوم.

وظلوا بعدها ينظرون إليَّ كثيرًا وخاصة الفتى صغير السن، حيث كان ينظر بابتسامةٍ وكأنه يتشفى مما أنا فيه أو سعيدًا لآلامي وجروحي الجسدية والمعنوية...

لن أدعهم يشاهدونني مكسورًا أو مهزومًا.. كانت حالتي الروحانية مرتفعة، نظرت إلى الفتى صغير السن وقلت له:

هل تظن أن لك أهمية أو أنك المسؤول هنا.. إنك هنا خادم مهم.

وأشرت إلى بقية القراصنة وأضفت:

- لن ينجو أحد حيًّا من هذا المكان.. سنموت جميعًا هنا.

تغير وجهه وبدأ عليه الذعر والخوف وبدا كأنه فأر مذعور يقترب أن يلقى حتفه، فقال لي:

- أنت مجنون... مجنون.

بعـــد الظهيرة كان قائد القراصنة يتحـــدث عبر جهاز الراديو مع المترجم باللغة الصومالية، وبعد أن أنهى نقاشًا وجدلًا طويلًا، سألته:

- كيف تسير الأمور؟

حاولت أن أفهم ما يجري حولي أو أن أحصل على أي معلومات.

فقال:

- تقصد حديثي مع هؤلاء الناس؟.. أنا أعمل لديهم.

إجابته هذه أصابتني بالدهشة الشديدة.. فقلت:

- أنت تعمل لدى البحرية الأمريكية؟!

قال:

بالتأكيد.. كل ما تراه يحدث هنا ما هو إلا تدريب، وهذا يحدث كثيرًا، نحن نختطف سفنًا وبعدها نرى ونقيم رد فعل البحرية الأمريكية، وشركتك هي من اتفقت معنا لفعل ذلك.. لا يوجد قراصنة في هذه المنطقة.

قلت:

هل أنت جاد؟

أومأ برأسه وقال:

أنا أعرف كل العاملين في البحرية الأمريكية منذ زمنٍ طويل، أعرفهم جيدًا، نحن أصدقاء!

كاد عقلي أن يتوقف حيث شعرت أنه يسير في اتجاهين عكس بعضهما البعض، أفكار مجنونة كانت تمر برأسي، جزءٌ من عقلي

يصدق ما قاله وأن هناك شواهد على ذلك، والجزء الآخر لا يتقبل هذا الهذيان والهراء.

أضاف قائد القراصنة:

أنا أخبرت مساعدك بذلك، هو يعلم أنه مجرد تدريب.

قلت:

ها.... ماذا؟

قال:

- وكبير المهندسين والبحرية الأمريكية وشركة (ماريسك) هم من أعطونا هذه الوظيفة وما نقوم به. تذكرت الخوف والرعب الذي كان على وجه (شين، ومايك) عندما غادرت مع القراصنة وحدي داخل قارب الإنقاذ.. هذا القرصان... كاذب.

قلت:

- نعم.. نعم.. صحيح.. ومحاولة قتلي.. هذا جزءٌ من التدريب؟

ضحك قائد القرصان وأصابه بعض السعال ثم بصق على الأرض وقال:

- نحاول قتلك؟.. متى كان هذا؟

قلت:

– داخل الســـفينة أطلقت عليَّ النار بكثافة وأنت تصعد على ظهر الســـفينة، وبعدها في قارب الإنقاذ أطلقت عدة طلقات مرت من فوق رأسي عندما حاولت الهروب.

قال:

إنها طلقات تحذيرية.. جزءٌ من التدريب.

كاد الشك أن يقتلني.

قلت:

وما حدث منذ فترةٍ قصيرة.. أقصد ضربي بشدة وشد وثاقي.. هل هذا أيضًا جزء من التدريب؟ قال:

ماذا تقصد؟

قلت:

عندما أطلقتم النار حولي بعد أن قمتم بشد وثاق يديّ وقدميّ.

قال:

إنها لم تصبك، كانت للتمويه.

ثم ضحك وهو يصدر صوت شخير مصاحبًا للضحك..

قال ثانية:

ها يا فيلبس، هل تعلم أنني بعد أن ننهي هذا التدريب، سوف أعمل على سفينةٍ يونانية؟

قلت:

حقيقي.. هذا أمرٌ جيد لك.

قال:

سأعمل لديهم كبحارٍ لفترة، وبعدها أعمل على سفينةٍ أمريكية.

قلت ضاحكًا:

أنت.. على سفينة أمريكية.. هذا لا يمكن أن يحدث.

قال بكل غيظ:

ماذا...؟ هل تعتقد أن البحارة الأمريكيين أفضل من الصوماليين؟

تدخل (موسو) في المناقشة قائلًا:

ها ها.. كل الأمريكيين يجلســـون في غرفهم يشـــاهدون التلفاز ويشربون الجعة.. كسل.. كسل.. أما نحن البحارة الصوماليون.. نعمل على مدار اليوم والليلة.. نقوم بفعل أي شيء.

ثم قذف لي بحبلٍ وقال:

اربط هذا الحبل كما ربطته أنا.

نظرت إلى الحبل وقلت:

ولماذا أفعل ذلك؟

قال:

– كي تثبت أنك بحار حقيقي.

قلت:

– أنا لســـت بحاجةٍ لربط حبلٍ وعمل عقدة كي أثبت أنني بحار، أنا أقود السفن منذ ثلاثين عامًا.

قال (موسو) ساخرًا:

– أنت طفل.. فيلبس.. طفل.. الصوماليون هم البحارة الحقيقيون.

وقال طويل القامة:

– البحارة الأمريكيون هم الأسود.

حاولت أن أتجاهلهم وأتوقف عن هـــذا النقاش العقيم وأن أعطي لعقلي وجسدي بعض الراحة.

بدأت البحرية الأمريكية في التحرك قليـــلًا، حيث فتحوا خراطيم الميـــاه تجاه قارب الإنقاذ، ورأيت مروحيات تطير وتحلق فوقنا، كانوا يحاولون منع الصوماليين من الإبحار تجاه الساحل الصومالي.

حرك القراصنة بعض (جراكن) الوقود ووضعوها على جانب قارب الإنقاذ، وكانوا على اســـتعدادٍ لحرق القـــارب.. إذا لم تتوقف البحرية الأمريكية عما تقوم به.. نظر إليَّ قائدهم قائلًا:

هاي فيلبس.. أنت ستموت في الصومال وأنا سأموت في أمريكا.

قلت:

ماذا تقول بحق الجحيم؟

قال:

– أنت تموت هنا وأنا أموت هناك.. في بلدك.

ماذا يقصد.. أنا أموت هنا.. فروحي لا تفارق الصومال وهو يموت على يـــد الجنود الأمريكيين فروحه لا تفارق أمريكا.. أو ربما أنا أموت برصاص الصوماليين، فتظل روحي هنا في الصومال.. بينما هو يموت أو يقتل برصـــاص جنود أمريكيين فروحه تهاجر إلى أمريكا.. ما هذا الهراء؟

ثم أضاف:

– أنا أعرف كيف أتعامل معهم، إذا أرادوا إيذاءنا.. فســـوف نقوم بعمل عمليةٍ انتحارية.

بعد مرور ســـاعتين.. كنا نبحر بسرعةٍ عالية، وفجأة سمعت صوتًا يأتي من المحرك وشـــاهدت بعض الشـــرر المتطاير، بعدها توقف المحرك، أعتقد بســـبب الحرارة الزائدة، قـــام أحدهم بتقطيع طبقة العازل التي تحيط بالمواسير، وسكب عليها مياهًا كثيرة لتبريدها.

الفصل السادس عشر

اليوم الثالث، الساعة 7.00 مساءً

ظل القراصنة طوال يوم الجمعة يحاولون التفاخر بإجادتهم لربط الحبـــال وعمل عقدة، من الصعب على غيـــر الصومالي أن يفهمها أو يتقنها.

وبدأ (موسو) في الشرح والتعليم: "عليك أن تمسك الحبل الأبيض بيدك اليمنى لأن الحبل الأبيض هو حبل (حلال) واربطه هكذا، وبعدها اربطه مع الحبل الأحمر، وإياك أن تمســـك الحبـــل الأبيض بفمك أو أســـنانك لأنه حبل حلال، لا يمكن أن يلمسه أي شيءٍ إلى يدك اليمنى فقط" وهذا يثبت أن البحارة الصوماليين هم الأمهر على الإطلاق.

حاولت إضاعة الوقت مع (موسو) والتسلية إلى أن وصلت لمرحلة الضجر والملل القاتل، وشعرت أنني ربما أظل شهورًا أتعلم عمل هذه العقدة، وبالرغم من ذلك، أي صومالي يربطها في زمنٍ أســـرع مني بكثير.

لذا توقفت عن الإصغاء له ورفضت الإنصات لما يقول أو يشـــرح، بعدها قال (موســـو): "أنت طفل يا فيلبس.. مجـــرد طفل.. أميركي كسول."

بدأت الشمس في الاختفاء.. واقترب حلول الظلام.. حاولت أن أنام لبعض الوقت، وفجأة فتحت عينيّ.. كان كل شيءٍ مظلمًا داخل القارب وقد اقتربنا من فجر يوم السبت.

سمعت أصواتًا خارج وعلى جانب قارب الإنقاذ، أصوات القراصنة يتحدثون إلى رجلين، جميعهم يتحدث بالصومالية.

ما هذا؟ من هذان الرجلان؟ حاولت أن أفهم ما يقولون؛ ســـمعت كلمات مثل: (صنعاء، فلسطين، فتح).

أنا أعـــرف (صنعاء) جيدًا حيث أن تنظيـــم القاعدة له نفوذ قوي هناك.. وبعد ذلك سمعت (فتح) لكن بنطقٍ آخر (فتوى) أنا أعرف تلك الكلمة.. إنها مرتبطة بالتعاليم الإسلامية..

إذًا الخاطفون يتحدثون إلى صوماليين، هل أتى أحد من الصومال بمركبٍ كبير لمســـاعدة القراصنة وتبديلهم برجالٍ أقوى، ويستطيع كلٌّ منهم البقاء فترة أطول، لكن كيف تسمح المدمرة التابعة للبحرية الأمريكية بوصول أي إمداداتٍ من الصومال إلى القراصنة؟

ربما يكون.. المترجم الصومالي، ولكن لماذا يتحدثون عن (صنعاء) و(الفتوى)؟ بـــدأ كلام قائد القراصنة، عن معرفته بالبحرية الأمريكية

والعمل لديهم، وأن كل هذا هو جزءٌ من تدريبٍ مسبق متفق عليه، يدخل إلى عقلي (ربما يكون صحيحًا).

حاولت الإنصات مرة أخرى، وكان يبدو أن المترجم يحاول إقناعهم بإخلاء سبيلي.

توقف الجميع عن الكلام، وشـــعرت بالتعـــب فخلدت للنوم ثانيةً، استيقظت بعدها، وكانت الشـــمس قد بدأت في السطوع، تذكرت ما حدث من قبل وما ســـمعته.. ســـألت رجال البحرية بعد انتهاء الأزمة عن ذلك الأمر، وأقســـموا أنهم لم يتناقشوا مع القراصنة أو يتفاوضوا بالشكل الذي سمعته.

ربما كان كل ما ســـمعته مجرد هـــلاوس ومخاوف داخلية تملكت مني، ســـمعت صوت مروحية مؤقتًا.. ورأيت زخات المياه تهبط على النوافذ، كانت تأتي مـــن خراطيم المياه للمدمرة البحرية، في محاولةٍ منهم لمنعنا من الإبحار تجاه السواحل الصومالية.

اســـتيقظ قائد القراصنة من نومه فزعًا، وفي حالةٍ مزاجية سيئة، وأمسك بالراديو ثم تحدث قائلًا: "توقفوا عما تفعلون."

وبعدها قال: "إذا لم تتوقفوا، سنقتل الرهينة."

ابتعدت المروحية وقد كان ذلك واضحًا من اختفاء صوتها.

بدأ القراصنة يتحدثون بنفس الكلام السخيف الذي قيل من قبل.

"ليس هناك قراصنة في الصومال.. إنها فقط وسائل الإعلام.. نحن نعمل لدى البحرية الأمريكية.. ونتدرب معهم ونساعدهم."

بعدها سألت قائد القراصنة:

- كم تطلبون ثمن الفدية؟

- ماذا تعتقد؟

- لن تحصلـــوا على دولار واحد.. فإما أن تتركوني وإلا ســـنموت جميعًا.. البحرية الأمريكية لن تدفع لكم.

- ليس حقيقة.. الأمريكيون يدفعون كثيرًا.. أكثر من أي شعبٍ آخر.

- لا.. لكن إذا تركتموني، ســـيتركونكم ترحلون في أمان، ويمكنك الاحتفاظ بقارب النجاة هذا.

ضحك قائد القراصنة وقال:

- ماذا تعتقد يا فيلبس.. كم تساوي؟.. كم ثمنك؟.. مليونان؟

هل تعلم أنني قتلت قبطان سفينة يونانية لأنهم عرضوا عليَّ مليونين من الدولارات فقط، وبعدها حصلت على 6 مليون دولار.

بعدها اقترب قارب مطاطي قادم من المدمرة الأمريكية، وصل إلينا للتفاوض وكان معهـــم المترجم ورجل آخر يحمل كاميرا، وكان يركز معظم التصوير عليَّ أنا، فقلت لهم بعد أن خرجت.. ليشـــاهدون أنني ما زلت أحيا:

- لماذا لا تطلقون النيران عليهم بدلًا من عدسة الكاميرا.

قال أحدهم من القارب المطاطي:

– لا تقلق، ســـوف يحدث لكن في الوقت المناســـب. أدخلوني إلى القـــارب مع القراصنة مرة أخرى، نظرت من النافذة لأجد ســـفينتين تابعتين للبحرية الأمريكية، وصلتا وبجـــوار المدمرة البحرية الأولى، اسمها (يو اس اس بوكسر) والثانية (يو اس اس آرلي بيرك)...

حين بدأت الشـــمس في المغيب وحل علينـــا الغروب.. كان هناك حديث يدور بين القراصنة وبيني.. عن إمكانية وسهولة قتلي، وأيضًا حاول (موسو) اســـتعراض مهاراته واستكمال شرحه عن كيفية ربط الأحبال وعمل عقدة معقدة.. بعدهـــا توقفوا عن إعطائي أي طعامٍ أو شراب.

بدأ الخوف يتســـلل إلى نفســـي ويزداد كل لحظة.. لكنني حاولت إخفاء ما أشعر به من الرعب.

كان يوم الســـبت من أصعب الأيام التي مـــرت على (أندريا) حيث أخبرتها مندوبة وزارة الخارجية أن الأزمة ســـوف تنتهي يوم الجمعة، وكل شـــيءٍ يصبح أفضل، لكن مر يوم الجمعة بالكامل دون أن تسمع أي أخبار، وكذلك انتصف نهار السبت والحال كما هو.

حاولت (أندريا) أن تحافظ على هدوئهـــا قدر الإمكان وتهتم بـــ (دان) و(ماريا) ولا تشعرهما بما يدور بداخلها من خوفٍ وقلق يقتلانها ألف مرة كل يوم.. سأل (دان) (أندريا) قائلًا:

أمي؟

نعم.

هل تعتقدين أن أبي سيكون بخير؟

نعم يا دان.. أعتقد ذلك.

قفز (دان) فرحًا، وقال:

– حسنًا.. سأذهب الآن إلى (بووك) صديقي ويسكن في آخر منزل من الشارع.

ابتسمت (أندريا) وقالت:

– حسنًا.. دان.. يمكن أن تذهب.

وبين كل هذا وذاك كانت الأخبار تصل إلى مســـمع (أندريا) مثل: (القراصنة طلبوا أموالًا طائلة).. (سوف يقتلون ريتشارد).

مرت اللحظات ثقيلة ومرعبة عليهـــا، وهي تنتظر وتنتظر، لكن لا يبدو أي أملٍ أو تقدمٍ يحـــدث، وكانت تأمل أن يأتي يوم الأحد بأخبارٍ سارة.

تعود إلى قارب النجاة، أنا والقراصنة.. ســـمعت صوتًا غريبًا كأنه طائرة بدون طيار تحلق فوقنا.. وفي ثوانٍ كان القراصنة يتخبطون.. فتحوا الباب الخلفي لينظروا، ماذا يحدث! ربما تكون سفينة ما خلفنا.

بدأ الفتى الصغير في توجيه ســـلاحه لي.. وقام (موسو) بتحريك بندقيته مســـتعدًّا لاستخدامها، وجاء طويل القامة ومعه منديل وضعه على عينيّ وربطه من خلف رأسي.. فصرت لا أرى شيئًا على الإطلاق، حاولت بجانب ذراعي أن أنزل العصابة التي فوق عينيّ ونجحت بعض الشيء.. سمعت أصوات استعدادات الأسلحة التي في أيدي القراصنة،

وكان يبدو عليهم الارتباك الشـــديد، وينظرون بين الحين والآخر من النوافذ، يبدو أن هناك شيئًا جللًا في الخارج.

نظر بعدها (موســـو) إليَّ.. وعرف أنني أزحت العصابة قليلًا من فوق عينيّ لأشاهد ما يحدث.. تقدم نحوي وصفعني قائلًا:

إذا فعلت ذلك ثانية، سأقتلك.

ثم وضع العصابة مرة أخرى فوق عينيّ وأحكم ربطها بشدة خلف رأسي.. لدرجة أنني شعرت بألمٍ في عظام وجهي.

قلت له:

- لماذا تفعل كل هذا؟ هل قررتم أن تقتلوني؟

كنت أجلس في الكرســـي في الصف الثالث من الخلف، على حافة الكرسي وكنت مربوطًا.

وفجأة، سمعت صوت طلقات نيران، بالطبع لم أستطع أن أرى من قام بإطلاق النار، ولكن الصوت كان قريبًا للغاية.

تخيلت أن يكون القراصنة قد فتحوا الباب الخلفي وأطلقوا النيران على الســـفن الأمريكية.. حاولت أن أتحدث وأسأل لأفهم.. لكنني كنت أعرف أنـــه لن يجيبني أحد، لذا ادعيت أننـــي أريد قضاء حاجتي كي أستطيع أن أتحرك وأرى ما يحدث، كان القراصنة منذ محاولة هروبي يعطونني زجاجة لأقضي فيها حاجتي، وغير مسموح لي قضاء الحاجة من الباب الخلفي للقارب كي لا أهرب مرة أخرى.

جاءني الرد من قائد القراصنة بعد أن طلبت أن أقضي حاجتي.

قال:

- لا.

جن جنوني وبدأت أصرخ قائلًا:

سوف تدفع ثمن كل هذا غاليًا.. أنتم مجرد مجموعة من القراصنة.

كانت كلمة (قراصنة) تصيبهم بالجنون.

فقال:

اصمت.. اخرس.

قلت:

- لن أصمت.

أدار قائد القراصنة المحرك وبدأ يتحرك بالقارب بسرعةٍ كبيرة.

ثم توجه إليَّ قائلًا:

- بعد أن نقتلك.. سنضعك في مكانٍ قذر، وأنا سآخذك إليه الآن.

ماذا يعني وماذا يقصد هذا القرصان؟

- إلى أين نحن ذاهبون؟

قال (موسو):

- مكان سيئ للغاية.

لم أعد أحتمل هذا العذاب النفســـي والبدني، شعرت بسائلٍ يسيل بين فخذي، وبالبلل في سروالي، جعلوني أقضي حاجتي على نفسي، يا لهم من مجموعة حيوانات!

بدأت أسبهم وأوجه إليهم أســـوأ وأقذر الكلمات، وأتوعدهم بأنهم سيموتون جميعًا.

نظر إليَّ القائد وقال: "اخرس."

بعدها أعطونـــي الماء وبعض أنواع من الفطائر، وأصر القائد على أن أتناول كمية كبيرة منها.

فقلت له: "تبًّا لك.. أنت لست (حلالًا).. أنت حيوان قذر."

نظر إليَّ وأشـــار بيده إلى رقبته وكأنه يقول؛ ســـنقطع رقبتك.. وبعدها أشـــار إلى يده ومرر يده الأخرى عليها.. أي سنقطع يدك.. ثم أشار إلى أعضائه التناسلية ومرر يده.. أي سنقطع أعضاءك التناسلية.

قلت له:

- أيها القذر، إذا قتلتني، فسوف تأتي روحي للانتقام منك وتعذيبك.

كان الظلام حالكًا في قارب الإنقاذ، وكان القراصنة يســـتخدمون كشافات تعمل بالبطارية.

قد وصلت لمرحلة تمنيت فيها إنهاء الموقف حتى لو أموت، فتمنيت لو أن البحرية تفجر قارب الإنقاذ بمن داخله وأنا أيضًا.

لكن للحظاتٍ فكرت في (أســـرتي).. وحدثت نفسي قائلًا: "يجب ألا أستسلم" وكان لدي يقين أن القراصنة عاجلًا أم آجلًا سيقتلونني.

الفصل السابع عشر

اليوم الخامس، الساعة الثالثة صباحًا

عندما اســـتيقظت صباح الأحد، كان القارب مظلمًا متماشـــيًا مع حالتي المزاجية، قـــال قائد القراصنة لي: "ها يا فيلبس.. لدي وظيفة جديدة الآن.. أنا ذاهب لأتفحص قاطرة باكستانية.. هذا ما طلبته مني البحرية الأمريكية ليتأكدوا أنها ليست تابعة لتنظيم القاعدة."

ثم جاء رجال البحرية الأمريكية فوق قاربٍ مطاطي ليتأكدوا أنني ما زلت على قيد الحياة من خلال الباب الخلفي المفتوح، أشـــرت لهم بيدي... أنني بخير.

ثم سألوني بصوتٍ عالٍ مســـموع عما إذا كنت بخير.. قلت: "نعم، أنا بخير."

غادر الزورق المطاطـــي التابع للبحرية الأمريكية وغادر معه قائد القراصنة، حيث قـــال أنهم يريدون مســـاعدته للتحقق من القاطرة الباكستانية.

يبدو أن كلامه صحيح.. لا أدري... أنا لا أفهم شيئًا.

انتهز الفرصة الفتى الصغير، وبدأ في الحديث معي قائلًا:

- عندما نصل إلى الصومال.. هل تريد الذهاب إلى السينما معي؟

- أكيد.. ولمَ لا؟

- أنا أذهب بصحبة صديقتي.

نظرت إليه بتعجبٍ مما سمعته وقلت:

- هل أنت على علاقةٍ بفتاة؟

- نعم.. ووالدتها موجودة، يمكن أن تكون صديقتك.

رفعت حاجبي متعجبًا أكثر من ذي قبل، فقال:

أنا مع صديقتي وأنت مع والدتها، ندخل إلى السينما كلنا سويًّا.

ثم مال ناحيتي، وقال بصوتٍ خافت:

وبعدها يمكن أن نذهب إلى فندق.

انفجرت ضاحكًا بعد سماع هذا.

سرحت بأفكاري بعيدًا.. أحاول أن أفهم.. كيف يوجد هناك ثلاث سفن للبحرية الأمريكية، والوضع كما هو عليه طوال هذه الأيام، والقراصنة يشعرون بالراحة إلى أن أسمع من ذلك الفتى كلامًا عن السينما ومواعدة الفتيات؟!! بعدها شاهدت سربًا من (الدرافيل) يسبح في الماء وينفث رذاذ المياه من فتحة خياشيمه، وقد أشعرني ذلك

المنظر بالسعادة والتفاؤل، لكن الصوماليين لا يتركونني، قد عاودوا الكلام عن ربط الحبال ومهارة عمل عقدةٍ صعبة معقدة.

مرت ساعة على ذهاب قائد القراصنة مع رجال البحرية.. إلى إحدى السفن وعلمت فيما بعد أنه ذهب للتفاوض على الفدية.

شعرت بوعكةٍ شديدة، وأنني أكاد أن أفقد وعيي، أشعر بالضعف.. أسندت رأسي وأرجعتها للخلف في محاولةٍ للتنفس بعمقٍ وإتاحة أكبر كميةٍ من الأكسجين للدخول إلى رئتيّ.

أعتقد (شدة الحرارة) مع الضرب والتعذيب، والقلق النفسي والمعنوي.. يسبب كل هذا.

أتى طبيب من السفينة الحربية، بعد أن أخبرهم القراصنة، أنني في حالة أعياءٍ، وكان الطبيب داخل زورقٍ مطاطي.. ويحادثني عن أسباب تلك الوعكة، أخبرته أنني سأتحسن، فسألني عن مكان الحمام، قلت له: "ليس هناك حمام، والقراصنة يمنعوني من قضاء حاجتي." لاحظت داخل القارب المطاطي وجود بعض الأغطية ويختبئ تحتها قناصة في وضع الاستعداد.

كان القراصنة يخشون أن أموت، حيث لا رهينة ولا فدية، وسيكونون في مواجهة البحرية الأمريكية مباشرة.

أعطاني الطبيب بعض الطعام من السمك والبرقوق.. وقال للقراصنة: "إن هذا الطعام للكابتن فقط" وأرسلوا أيضًا سروالًا أزرق اللون وقميصًا أصفر اللون.

لـــم أكن أعلم أنهم أعطوني قميصًا أصفر اللون.. كي يســـاعد هذا اللون القناصة في تفادي الضرب ناحيتي.

جاء القارب المطاطي مرة أخرى، وتحدث من به قائلًا: "نحن سنقوم بربط قارب الإنقاذ بحبلٍ طويل ثم يتم سحبه إلى قرب السفينة." وافق القراصنة على ذلك.. وقد زاد هذا من دهشتي.

كنا تقريبًا على بعد 20 ميلًا من الســـاحل الصومالي.. وكان رجال البحرية لا يرغبون أن نصل إلى الأراضي الصومالية مهما كان الثمن.

في تمام الساعة الخامســـة عصرًا، تم سحب قارب الإنقاذ الذي أنا بداخله إلى إحدى السفن، عن طريق حبلٍ معدني مربوط في أعلى قارب الإنقاذ ثم أعطاني أحد رجال البحرية ساعة اليد الخاصة بي.. أعطاها لطويل القامة الذي يتعامل مع رجال البحرية وبدوره أعطاها لي.. نظر بها جيدًا ثم ناولني إياها.. وسمعت رجل البحرية يقول: "إنها ساعتك، كانت في يد قائد القراصنة."

شاهد القراصنة بعض الأجسام السوداء طافية على المياه حولنا.

بدأوا بالصراخ قائلين:

- ما هذه الأشياء؟

رد أحد رجال البحرية:

- لا.. إنها فقط أكياس قمامة، نفايات نقذفها في البحر.

بعد ذهاب قائد القراصنة، اســـتمر (موسو) وطويل القامة ليقوما بدور الزعيم على الفتى الصغير، واســـتمرا وقتًـــا طويلًا في إعطائه الأوامر والسخرية منه، وتوجيه السباب له أحيانًا.

وفجأة انفجر الفتى الصغير وأطلق عدة طلقات نارية داخل قارب الإنقاذ، أحدث صوتًا عاليًا للغاية، وبعض الأضواء البراقة.

سمعت صوتًا عبر ميكروفون من الخارج.. (صوت نسائي).. وهي إحدى العاملات على ســـفينة البحرية الأمريكية، تسأل عما إذا كنت أنا بخير، لقد ظنوا أنهم قتلوني.

أخذ (موســـو) وطويل القامة يصرخان في الفتى الصغير: "ماذا تفعل؟.. كدت أن تقتلنا.

رد القراصنة على الصوت النسائي الآتي من الخارج: "لا تضربوننا.. إنها خطأ.. مجرد خطأ.. والقبطان بخير."

ظللت قابعًـــا مكاني والقراصنة الثلاثـــة واقفين يصرخون بوجه بعضهم البعض، وفجأة ســـمعت أصوات طلقاتٍ نارية مدوية للغاية وبلا توقف، استمرت لعدة ثوانٍ، لكنها كانت بالنسبة لي دقائق طويلة، أخفضت رأسي كي لا أصاب، وشعرت بسائلٍ ساخن يترك زخاته على وجهـــي، لم أفهم ما يحدث، ظننت أن الشـــجار احتدم بين القراصنة وزادت وتيرته، وأنهم بدأوا يطلقون النيران على بعضهم البعض.

وبعد لحظاتٍ توقف الصوت.. رفعت رأسي وقبل أن أفهم ما حدث، وجدت أحد رجال البحرية يرتـــدي الأزرق الغامق، يهبط من النافذة

العلوية ويســـألني عما إذا كنت بخير.. أومأت برأســـي وأنا في حالة ذهول، وهنا شـــاهدت الثلاثة قراصنة ملقـــون على الأرض مقتولين، ساعدني وفك الأحبال التي أوثقوني بها، ثم أخذني وقال بصوتٍ عالٍ:

إنه مصاب.

فقلت:

– لا.. أنا لســـت مصابًا، الدماء التي على وجهي ليست دمائي، إنها زخات من دماء القراصنة.

الفصل الثامن عشر

اليوم الخامس، الساعة 7.45 مساءً

قام رجال البحرية الأمريكية بســـحب ورفع القارب المطاطي إلى السفينة (بينبريدج).. كنت أسير واضعًا ذراعي على كتف رجل البحرية الذي اصطحبني من قارب الإنقاذ، ذهبنا إلى مؤخرة السفينة وقد تجمع رجال كثيرون لتحيتي وتهنئتي بالســـلامة والنجاة، لكنني كنت متعبًا للغاية وأشعر بإعياءٍ شديد.

وكان هناك كثير من المجندين يركضون هنا وهناك وهم يتحدثون عبر سماعات مثبتة بالأذن.. فقد كانوا يتفقدون المكان وقارب الإنقاذ مـــن الداخل والتأكد من موت جميع القراصنـــة، لوحت للجميع رافعًا يدي، وقلت بصوتٍ يكاد يكون مسموعًا: "شكرًا."

وأخذوني مباشرة إلى المشـــفى الصغير الموجود بالسفينة، حيث كان هناك فريق طبي بانتظاري، أخرجت كل ما بداخلي من كبتٍ وخوفٍ وترقبٍ ورعبٍ على نفسي وأســـرتي، واقتراب نهاية حياتي، والتواجد

وسط مجموعة من اللصوص القراصنة الخاطفين، الضرب.. المهانة.. الذل.. الحرمان.. التفكير المتواصل، العقل الذي لا يتوقف، قلة النوم، عدم الاستحمام، المصير المجهول والشـــعور بالظلم والقهر... ماذا فعلت أو جنيت لألقى كل هذا العذاب؟ آلاف الأفكار تدور داخل رأسي وأريد أن أخرجها قبل أن أصاب بالجنون، وعلى بعد آلاف الأميال.. لم تسمع (أندريا) أي أخبارٍ جديدة عني منذ صباح الأحد، وكان الزائرون ما زالوا يتوافدون على المنزل، وكذلك الصحافة ووسائل الإعلام.

بعدها صعدت إلى غرفة النوم الساعة 11.30 صباحًا، محاولةً أن تنام لبعض الوقت، حيـــث كانت حجرة النوم هي أهم وأكثر الحجرات أمانًا بالنسبة لها، وبالتأكيد كانت بها خصوصية وبلا زائرين أو رجال صحافة، أدارت (أندريا) جهاز التلفاز وحاولت أن تشـــاهد أحد الأفلام لتقتل الوقت، وإذا بها تشـــاهد على الشريط الأسفل من الشاشة حيث تكون هناك أهم الأخبار العاجلة (تم تحرير كابتن ريتشارد فيلبس).

لم تصدق ما شاهدته مكتوبًا أسفل الشاشة.. قفزت في الهواء عدة مرات وهبطت الدرج إلى الطابق الأسفل بسرعةٍ شديدة، كان (جوناثان) في الطابق الأول.. قالت: "عليك أن تتأكد أن هذا الخبر صحيح."

من فرط السعادة والابتهاج تناسى الجميع الاتصال بزوجتي، وقد ظنوا أن هناك من اتصل بها ليبلغها الخبر.

اتصل (جوناثان) بشركة (ماريسك) ووزارة الدفاع الأمريكية للتأكد من الخبر، وكانت (أندريا) لا تريد شيئًا إلا أن تعرف أنني بأمان..

جاء الرد بأن الخبر صحيح.. وقضى الجميع وقتًا رائعًا من الفرحة والســـعادة، وامتلأ المنزل ثانية ولكن هذه المرة للتهنئة ومشـــاركة الفرح، قمت بالاتصال بالمنزل من الســـفينة في تمام الساعة الثالثة عصـــرًا.. رن جرس التليفون، قامت (بيج) صديقة (أندريا) بالرد على الهاتف..

- هالو.. هالو.. هل تعرفين من أنا؟ ألم تتعرفي على صوتي؟

قفزت (بيج) من الفرحة وأمسكت يد (أندريا) وقالت:

إنه ريتشارد.

أمسكت (أندريا) الســـماعة، وفعلت مثلما كنا نفعل في الماضي، وقالت:

- هالو.. هالو؟

قلت كالمعتاد:

هل زوجك بالبيت؟

لا.

جيد.. سآتي إليك الآن.

وبدأت الدموع تترقرق في عيني (أندريا).

وتبادلنا الحديث حول الكثير مما حدث وفي نهاية المكالمة، سمعت صوت ارتطام، لقد كانت (أندريا).. سقطت على الأرض مغشيًّا عليها، حيـــث كانت تحدثني وما زال عقلها وقلبها غير مســـتوعب لما حدث، وانفراج الأزمة وأنني بخير وعائد إليها لنستكمل حياتنا سويًّا..

عندما كان الطاقم الطبي يتفحصون حالتي الصحية وأي جروحٍ أو كدمات في جســـدي، كانت رائحتي سيئة للغاية وازدادت عندما قامت أحد الممرضات بقص القميص بمقص وانقطع من فوق جسدي، هنا أدركت أنني لم أســـتحم منذ وقتٍ طويل، تم الكشف وبدأت استحم ثم أعطوني ملابس نظيفة جديدة.

بذلة زرقاء من ملابس البحرية (الشـــخصيات المهمة) وقبعة رأس عليها شعار البحرية، وكنت في أفضل حالاتي.

جاءني أحد المجندين وســـألني عما لو كنت أريد أي شيء، أجبته: "نعم، أريد جعة."

وعندما ذهب لإحضار زجاجة جعة، سألته: "هل يمكن أن تعطني زجاجتين؟

ابتسم وقال: "أكيد."

بعدها حضر كابتن السفينة وتحدث معي قليلًا وأخبرني أن الرئيس (أوباما) اتصل هاتفيًّا للاطمئنان عليّ.. وأعطاني الهاتف.

(أوباما): "أعتقد أنك أبليت بلاءً حسنًا للغاية."

أنـــا: "أعتقد أن كل الشـــكر موجه لرجال البحريـــة الأمريكية، لا أستطيع أن أشكرهم حيث الشكر غير كافٍ، وأود أن أشكرك لكل الدعم الذي قدمته."

وكان هذا حقيقية حيث علمت أن أمر ذهاب السفن لإنقاذي جاء من الرئيس شخصيًّا..

(أوباما): "نحن في غاية السعادة لأنك الآن بخير وفي أمان."

بعدها تحدثنا عن رياضة كرة السلة وما الجديد في نتائج المباريات.

في اليوم الثالث، جاءني أحد المجندين يسألني؛ ماذا أحب أو أريد أن أفعل اليوم؟ أجبته: "أريد أن أتجول في الســـفينة وأشاهد المحيط والأفق البعيد وأنا في راحةٍ وأمان."

صعدت إلى سطح السفينة ونظرت بعيدًا إلى آخر نظري، وتذكرت كثيرًا مما حدث لي.. بعدها تجمع كل من كان على السفينة واصطفوا، ثم مررت عليهم جميعًا وأنا أصافحهم يدًا بيد.

بعدهـــا تحدثت إليهم وشـــكرتهم على كل ما قدمـــوه، وأنه لولا شـــجاعتهم لما كنت في أمانٍ الآن، وتحدث بعضهم عن سعادتهم أن الأمور صارت لصالحهم بلا ضحايا أو دفع فدية، بعدها حضر إليَّ قائد الفريق الذي قام بتحريري، وسألني عن حالتي، وكنت في غاية الحرج أن أسرد له ما مررت به من إهانة، استمع إلى بعض ما رويته، ثم قال: "أعتقد أنك بحاجةٍ إلى أن تجلس مع طبيبٍ نفسي حيث هو الوحيد الآن القادر على مساعدتك."

بعد فترة.. حضر الأخصائي النفسي الذي على السفينة، أخذ يتبادل معي أطراف الحديث.. تارة يســـألني وتارة يســـمعني لوقتٍ طويل، أفرغت كل ما بداخلي من غضبٍ وكرهٍ وحزن..

كان المخطط أن تأخذني ســـفينة البحريـــة الأمريكية إلى ميناء (مومباسا) في كينيا، لألحق بـــ (ماريســـك ألاباما) وألتقي بزملائي

ونتبادل التهاني لكن جاءت استغاثة من سفينةٍ أمريكية تدعى (ليبرتي سن) (Liberty Sun).. أنها تحت حصار قراصنة وأنهم يهاجمونها.. صدر الأمر إلى (بينبريـــدج) بالتوجه إلى إنقاذهـــم وإنهاء الموقف لصالحهم بـــلا ضحايا.. جاء الكابتن واعتذر لي أنه لن يســـتطيع أن يأخذني مباشرة إلى (مومباسا).. عليه أن يتوجه ليساعد هذه السفينة قبل أن يتمكن القراصنة منها، وبالفعل توجه في الوقت المناســـب.. وصل إلى هناك قبل صعود القراصنة إليها والســـيطرة عليها.. هرب القراصنة بعيدًا وتم مطاردتهم إلى أن ابتعدوا لمسافةٍ بعيدة للغاية.

غـــادرت (بينبريدج) يوم الجمعة، الســـاعة الرابعـــة صباحًا في (مومباسا).

الفصل التاسع عشر

في منزلي.. انهمر تدفق رجال الصحافة ووســـائل الإعلام.. قامت (اليســـون) – صديقة للأســـرة – بالتحدث إليهم جميعًا معربة عن شـــكرها لوجودهم، وذكرتهم أن يوم الأحد هذا هو يوم (شم النسيم) أو (ايســـتر) حيث هو يوم خاص لكل عائلة، لذا عليهم الآن الانصراف وأن يتركوا هذا اليوم خالصًا لعائلة (فيلبس).. بعدها قام عضو مجلس النواب الأمريكي (باتريك ليهاي) بالاتصال بـــــ (أندريا) وأخبرها أنه عنما ســـمع الخبر، كان في الكنيســـة يؤدي الصلوات وأنه نسي نفسه تمامًا، ونسي المكان الذي هو فيه ورقص فرحًا عند سماع خبر تحرير (ريتشارد) وفي مساء يوم الأحد اتصل الرئيس (أوباما) بـــــ

(أندريا) قائلًا: "أنا أنهيت لتوي حديثي مع زوجك عبر الهاتف" فقالت (أندريا) مازحة: "تقصد أنني المكالمة الثانية."

ضحـــك أوباما.. كانـــت (أندريا) تود الحديث كثيرًا وأن تشـــكر (أوبامـــا) طويلًا، لكنها تعلم أنه الرئيس ويجب التعامل معه بشـــكلٍ رسميٍّ وبتكليف.

أخبرها (أوباما)؛ أن الأمة بأكملهـــا كانت قلقة عليها وعلى زوجها وتصلي من أجلهم، وأخبرها أنه عند حديثي معه، شعر أنني بخير وأن كل شيءٍ يسير بشكلٍ جيد.. شكرته (أندريا) كثيرًا ووجهت الشكر من خلاله لكل من كان بجانبها، وكل من ســـاهم في إنهاء هذه الأزمة.. تم تحريري يوم الأحد، يوم (شـــم النسيم).. يوم (ايستر) وعدت بالطائرة يوم الجمعة في طائرةٍ خاصة، كانت ملكًا لمالك شـــركة (ماريســـك) شخصيًّا، والرحلة التي تستغرق 45 ساعة، استغرقت فقط 18 ساعة، شـــعرت بالرفاهية، حيث أن الطائرة فخمة وأيضًا لم تتوقف، قطعت المسافة مباشرة.

جلست في الطائرة أحتســـي الكوكاكولا، وأنا أتخيل شكل أسرتي وهم بانتظاري، أخبرتني (أندريا) فيمـــا بعد؛ أنه بعد هبوط الطائرة في مطار (بيرلنجتون).. كنا نســـير في أرضية المطار حيث الطائرة، وإذا بـــــ (ماريا) تقول لـــــ (أندريـــا): "أمي، أنا لا أتحمل بطء السير، أنا أريد أن أركض".. كل ما رأيته.. (ماريا) تجري وسط جموعٍ غفيرة لتصل إليَّ وترتمي بحضني، وبعدها ظهر (دان) حضنته كثيرًا، ومن بعدهما رأيت (أندريا).. قفزت وارتمـــت بين ذراعيّ، ومن كثرة

الحب والشـــوق لم أستطع النطق بكلمة، قالت (أندريا): "إنك لم تبدل ملابسك التي شـــاهدتك بها على التلفاز".. قلت: "نعم، إنها ملابسي البحرية الأمريكيـــة.. لم أرغب في تبديلها عرفانًـــا بالجميل وحفاظًا لفضلهم عليَّ".. بينما تســـير السيارة التي أقلتنا من المطار، شاهدت جموعًا غفيرة من الناس على جانبي الطريق، رافعين لافتات بها تحية لي وأجمل الأمنيات وتحية للبحرية الأمريكية، في هذه اللحظة تذكرت أصعب لحظات حياتي وأنا جالس في قارب الإنقاذ وقد شـــدوا وثاقي، أودع أسرتي بكلمات الحب، حيث كنت قاربت وأشرفت على الموت.

أمسكت بيد (أندريا) ونظرنا إلى بعضنا البعض، وكلٌّ منا يتحدث وهو صامت.. بلا صوت، كنا على وشك أن يفقد كلانا الآخر، وألا نلتقي ثانيـــة ثم توجهت بالكلام إلى (دان): "هـــل تذكر يا دان، عندما كنت تقول مازحًا: أنا أشعر أنه ليس لي أب.. أرجوك لا تقل هذه الجملة مرة أخرى"

أومأ (دان) برأسه وابتسم.

نظرت إلى (أندريا) وهي تمزح قائلة: "المرة القادمة عندما تشعر أن الحظ يحالفك.. هل تشتري ورقة ياناصيب؟... أكيد سوف تربح."

ولم أتصور كم الناس التي أظهرت حبها وتعاطفها مع (أندريا) في غيابي، بعدها قالت (أندريا): "ما حدث أعاد إليَّ الإيمان بأهمية وجود الناس حولك، أنا صار لي 16 عامًا أعمل ممرضة في غرفة الطوارئ.. حيثما ترى أناسًـــا كثيرين في مواقف صعبة، ونادرًا ما يظلون على قيد الحياة، تفقد إيمانك أحيانًا وتنسى معه أن هناك أناسًا رائعون في

كل مكان، وبعد مشـــاهدة جموع الناس حولي وصلواتهم لك وعودتك لنا ســـالمًا، آمنت بأهمية وجود الأصدقاء والأحباء من حولنا، لقد كانوا يرسلون لي كل شيء.. الطعام، والملابس، والأدوية.. كل شيء، لعلمهم أن حياتنا متوقفة إلى أن تعود، حتى أنه يعمل معي في المستشـــفى رجل صومالي (لاجئ) اتصل بي وهنأنـــي بعودتك واعتذر عما فعله أناس من الصومال، وقال: "إنهم قلة."

ذهبت أنا و(أندريا) لأماكن كثيرة لم أحلم أن أدخلها أو أتواجد بها.. أوبرا واشنطون الأهلية.. مناسبات ربطة العنق السوداء.. مقابلة أناس رائعين.. شـــيء لا يصدق، وجاءت علينا لحظات كنا نجلس بها داخل (المكتب البيضاوي).. في البيت الأبيض.. مقر الحكم في أمريكا حيث يتواجد رئيس الجمهورية.. همســـت (أندريا) قائلة: "كيف وصلنا إلى هنا؟".. حيث أنه لا يستطيع أي عاقل أن يصدق أنه سيكون ضيفًا في البيت الأبيض، وأخبرتني (أندريا) أنها تريد تأليف كتاب تسميه (101 شيء من الممكن أن تفعله مع ريتشارد فيلبس).. وكان اللقاء الأجمل، هو دعوة تلقتها (أندريا) من زوجات الضباط البحرية الأمريكية، حيث أقاموا احتفالًا بخصوص عودة (ريتشارد) وقاموا بدعوتنا، وكانت ليلة رائعة، إذ سألني الجميع: "هل هذه التجربة غيرت بك أي شيء؟"

أجبت: "نعم.. ازداد إيماني آلاف المرات.. اختفت أي شكوك."

وقال (ريتشـــارد) وأضاف: "نعم، دعوت الله كثيرًا أن أخرج من الأزمة لأعود إلى أســـرتي التي أحبها.. اســـتجاب لي، فهل تظنون كم

إيماني الآن؟.. كنت أريد أن أعود لأكون زوجًا وأبًا مثل أي إنسان، فهي نعمة كبيرة لا يعلمها إلا من حرم منها، وأنا عشت هذا الحرمان.“

قام أهل بلدتي الصغيرة بعمل حفل بمناسبة عودتي.. وتحدث فيها وتحدثت (أندريا) وأناس كثيرون.

الجو رائع والحب يسود الجميع، كم أنا محظوظ بكل هؤلاء الناس من حولي.

لكن الحظ الأكبر والحب الأعظم، هو وجودي وسط زوجتي (أندريا) وابنتي (ماريا) وابني (دان).

تمت

ترجمة وإعداد

مروان منير

Marwan92966@gmail.com

سما
للنشر والتوزيع